

حياة حافظ وسيرته

١

مولده ونشأته

هو « محمد حافظ إبراهيم » ، وُلد في حراقة أنيقة كانت راسية في النيل بالقرب من قناطر ديروط ، كما سجل هو بخط يده في ملف خدمته . وكان يملك هذه الحراقة « محمود سليمان باشا » من كبار سادة الصعيد في ذلك الحين ، وقد قلمها إلى والده شاعرنا « إبراهيم أفندي فهمي » أحد المهندسين المشرفين على القناطر لينعم بسكنائها لقاء توفير المياه لإرواء أراضيه الواسعة . والظاهر أن فضل الباشا على المهندس لم يكن مقصوراً على الذهبية ، بل كان يُغدق عليه الكثير من الخيرات التي أفاءها الله على أهل الأرياف وبخاصة الأغنياء منهم . وكان حافظ يعرف فضل هذا الرجل على أبيه ، ويصرح به في القصيدة التي رثاه بها ، وقد استهلها بقوله :

مسلى الجميل بلا من^١ يكدره ومكرم الضيف أمسى ضيف رضوان^(١)
وختمها بهذا البيت :

كم نعمة لك يا « محمود » عند أبي بشكرها لك عند الموت أوصاني
وقد سار أبناء (الباشا) على منوال أبيهم ، فكانوا يكتفون حافظاً بفضلهم
الغامر ، وكان المغفور له « محمد محمود » يقرّبه لأدبه وظرفه ، وكان حافظ
يشعر بأنه ذو مكانة أثيرة في هذه الأسرة . ويحدثنا صديقه الأستاذ أحمد محفوظ
بأن حافظاً كان — عندما تولى محمد محمود رئاسة الوزارة — « يخال نفسه أنه هو

(١) ديوان حافظ إبراهيم ٢٣٦/٢ طبعة وزارة المعارف ١٩٣٧ .

محمد محمود ، فإذا تحدث معنا قال : نحن فعلنا كذا وسوف نفعل كذا» (١) .
وكان والده مصرياً صميماً ، أما أمه « الست هانم كريمة أحمد البورصة لى »
فيرجع نسبها إلى أسرة تركية .

ولا يعرف أحد ولا حافظ نفسه يوم ولادته على وجه التحديد . وعندما
أريد تعيينه فى دار الكتب يوم ٤ فبراير سنة ١٩١١ قدّر القومسيون الطبي سنة
بتسع وثلاثين سنة وعلى هذا التقدير يكون مولده يوم ٤ فبراير ١٨٧٢ . والذين
يعرفونه منذ حداثة يقولون إنه كان أسنّ من ذلك .

وقد فتحت عيننا الشاعر على مياه النيل الرقاقة ، فكان ذلك إرهاساً لطيفاً
بأن الذى وُلد على صفحة النيل لُقّب فيما بعد « بشاعر النيل » .

وقد درج الطفل على ظهر الحراقة ينعم بحنان والديه ويرضع من لبان حبهما .
ولما بلغ الثالثة من عمره آنس الله وحدته بأخت لا تعرف اسمها ولا تعرف من أمرها
شيئاً . وفى سنته الرابعة لفّ الحراقة حزن غامر وهمّ شديد ، فقد اخترم الوالد
ومضى من غير أن يترك للأمّ مالاّ تستعين به فى تربية الطفلين ، فكان رزؤها
فادحاً لأنه تركها فى حالة شديدة من الإملاق ، وبخاصة وأنه كان موظفاً خارج
الهيئة ، فلم يكن له معاش يقيم أودها هى وطفليها (٢) . وقد رأيت الأمّ أنه لا بد
لها من أن ترحل مع ولديها إلى القاهرة لتعيش فى كنف أخيها « محمد أفندى
نيازى » المهندس بالتنظيم . وبعد سنين قلائل ألحق الخالّ الطفل بالمدرسة الخيرية
بالقلعة ليتعلم القراءة والكتابة وشيئاً من علم الحساب . ثم التحق بعد ذلك بمدرسة
القريبة الابتدائية ، وانتقل منها إلى مدرسة المبتديان ، ثم تحول إلى المدرسة
الحلديوية ، ولكنه لم يمكث فيها طويلاً لأنه انتقل مع خاله إلى طنطا سنة ١٨٨٧ .
ويبدو أن نفحة الشعر قد باكرته فى هذه السن الصغيرة ، فأخذ يخلّق فى
سماء القريص بجناحين ضعيفين ، فكان يمضى فى نظمه حيناً ويكبو حيناً آخر .
وكان حافظ مشغولاً بقراءة كتب الأدب وبخاصة كتاب « الوسيلة الأدبية »

(١) حياة حافظ إبراهيم للأستاذ أحمد محفوظ ص ١١٧ .

(٢) حياة حافظ إبراهيم ص ٧ .

للشيخ حسين المرصفي . والظاهر أن هذا الكتاب قد فُتِنَ به كثير من ناشئة المتأدبين في ذلك الحين . فهم يذكرون أن الشاعر شوقي « كان عماده كتاب " الوسيلة الأدبية " فألم بما فيه من مسائل لغوية ومن نصوص شعرية وخاصة بما اتصل بالبارودي » (١) . وهذا الكتاب أمشاج من النحو والصرف واللغة والبلاغة وألوان شتى من أمثال العرب وحكمهم وأشعار فحولهم منذ العصر الجاهلي حتى أوائل العصر الحديث . وكان حافظ ذا حافظة لاقطة قوية ، فاستظهر كثيراً من شعر السابقين يتمثل به في المناسبات الخاصة والعامية ، ويطارح به أصدقائه وخلانَه . واستوعب الكثير من طرف العرب ونواديرهم يُتَحَفُّ به جُلاَّسه ، فيُضِنُّ على مجالسه روحاً من البهجة والسرور ، فألِفَتَه القلوب وتشوّفت إلى مجالسه النفوس كتب صديقه المرحوم الأستاذ عبد الوهاب النجار يقول :

« في صيف سنة ١٣٠٥ هجرية كنت طالباً في الجامع الأحمدي بطنطا ، وقد سافرتُ في أيام العطلة إلى بلدنا القرشية ، ثم عدت في أواخر شعبان من تلك السنة إلى طنطا ، فإذا بإخواني يلوذون بفتى غضَّ الإهاب جديد الشباب ، وقد أسرعوا بتقديمي إليه وتقديمه إلى " باسم الأديب الشاعر " محمد حافظ إبراهيم . ولم تمر إلا عشية أو ضحاها حتى أحسست من نفسي ميلا إليه يجاذب من الأديب الذي كان نهمة نفسي ، حتى آل ذلك إلى غرام بأدبه وما يشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة و بديهة مطاوعة وسرعة خاطر وحضور نادرة .

« وقد قضينا رمضان هذه السنة نصلي المغرب والعشاء والتراويح معاً ، ثم نلبث في سَمَرٍ ممتع ومطارحة للشعر ومذاكرة في نوادر الأدب ، وما كان يُطرفني به مما يقف عليه من جيد القريض إلى أن يأتي وقت السحور » (٢) .

ولم يكن للفتى مهنة يرتزق منها آنذاك ، وقد أخذ يغادر عهد الصبا ويزحف نحو الشباب وهو يحس بأنه ككل على خاله ، وأن خاله أخذ يضيق به بسبب تعطله ، فقرر أن يغادر المنزل وكتب لخاله هذين البيتين :

(١) شوقي شاعر العصر الحديث للدكتور شوقي ضيف ص ١٠٢ .

(٢) مجلة أبولو عدد يولييه سنة ١٩٢٣ ص ١٣٢٧ .

تَقَلَّتْ عَلَيْكَ مَوْثِقِي إِلَى أَرَاهَا وَاهِيهِ
فَأَفْرَحُ فَإِنِّي ذَاهِبٌ مَسْجُوحٌ فِي دَاهِيهِ

وهذا الشعر يدل على ما كان يعتمل في نفس الصبي من ألمٍ مُمِضٍ، ويدل في الوقت نفسه على روح لا يزيئها المرح حتى في وقت الشدة .

وكان الفتي ينظر إلى الدنيا بعين مفعمة بالشاؤم ، ولذا نراه يشكو الزمن ويندب سوء حظه ، ويودّ من قرارة نفسه أن يغادر دنيا الآلام وعالم الشجب ، وقد قال في ذلك شعراً يروي لنا بعضه صديقه المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار مثل قوله :

عَجِبْتُ لِعَمْرِي كَيْفَ مُدَّةً وَطَالَا وَمَا أَثَرْتُ فِيهِ الْهَمُومُ زَوَالَا
وَلِلْحَمُوتِ مَا لِي قَدْ أَرَاهُ مِبَاعِدَا وَجَلَّ مَرَادِي أَنْ أَوْسَدَ حَالَا
فَلِلْحَمُوتِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ أَرَى بِهَا ذَلِيلَا وَكُنْتُ السَّيِّدُ الْمَفْضَالَا

٢

حافظ المحامي

فكر حافظ في عمل يحصل منه على ما يدرأ عنه شر المسغبة ، فإذا يصنع ؟ لم يكن يحمل شهادة تسوق إليه وظيفة تُدرُّ عليه مرتباً مضموناً . وكل بضاعته أنه نال قسطاً من العلم والثقافة في غير نهج سوى أو نظام . وفكر في أن يحترف التعليم في كتاب كما فعل عبد الله نديم ، ولكنه رأى أن هذا العمل قد لا يحتمق له ما ينشده فازور عنه . ثم نظر فرأى مهنة المحاماة متفاسحة الأكناف لا تضع شرطاً ما أمام من يريد أن يلجج بابها سوى أن يكون قوي الحاجة يستطيع الفلنج وقهر الخصم . وكان حافظ يأنس في نفسه اللسن وقوة البيان . فرأى أن يحترف هذه المهنة ، ولكن أدنى له أن يستقل بمكتب وهو الرجل المعلم المفلوك ، فقصد الشيخ

محمد الشيمي المحامي بطنطا واشتغل في مكتبه . وكان عمله هذا يضطره إلى السفر إلى المحاكم الجزئية القريبة من طنطا للمرافعة في بعض القضايا . ثم اختلف مع صاحب المكتب فتركه وترك له هذين البيتين :

جراب حظى قد أفرغته طمعاً بباب أستاذنا الشيمي ولا عجباً
فعاد لي وهو مملوء فقلت له مما ؟ فقال : من الحسرات ، واحرباً

ورهب إلى مكتب الأستاذ محمد أبي شادي المحامي بطنطا ، وهناك وجد جواً يوافق هواه ، إذ كان الأستاذ أبو شادي يعشق الأدب ويحب الأدباء ، فوجد في حافظ ضالّةً طالما نشدها ، فكانا يتساجلان بالشعر وطرائف الأدب .

بيد أن حافظاً كان ملولاً لا يستقر على حال ، فقد ملّ العمل مع أبي شادي وتركه وعمل في مكتب الأستاذ عبد الكريم فهمي المحامي ومكث عنده مدة من الزمن ، ثم عاوده الملل فانتقل إلى مكتب الأستاذ إبراهيم الهلباوي ، ولم يمكث فيه أكثر مما مكث في غيره ، فقد كان الهلباوي رجلاً حديد اللسان لا ذع السخرية ، وليس بعد أن يكون قد وقعت بين الإثنين ماحمة كلامية خرج بعدها حافظ مغضباً فرسب في نفسه الحقد على الهلباوي كما يقول الأستاذ محفوظ^(١) ، حتى إذا كانت حادثة « دنشواي » تحركت في نفسه عوامل الحقد القديم فهاجم الهلباوي هجوماً عنيفاً — وكان يقوم بوظيفة المدعى العمومي ويطلب بأخذ المهين بالشدة — بأبيات تم على ما كان يضمه للهلباوي من موجدة وبغض .

لم يستمر حافظ مهنة المحاماة ، ولم يستطع أن يشق لنفسه طريقاً فيها ، وذلك لأن مهنة المحاماة تتطلب من صاحبها الدأب والعكوف على دراسة القضايا وتحرير المدكرات وتنفيذ حجج الخصوم ، وحافظ لا يطبق شيئاً من ذلك ولا يهتم بالجلوس إلى المكتب الساعات الطوال غارقاً في البحوث الفقهية . وكل بضاعته أنه رجل يحسن الكلام ويجيد النقاش والدفاع معتمداً في ذلك على

الحاشرات الطائرة . ثم إنه كان في ذلك الوقت فتى غراً لم يرتضع بعد من أفويق التجارب ولم يتمرس بالحياة ، وجلّ همه أن يتصفح كتاب أدب أو يجلس مع لفيق من خلّاته يتندر معهم ويمتعهم بأحاديثه الطلية . يضاف إلى ذلك أنه كان مبسوط اليد لا يستقر في جيبه مال ، فلم يكن في قدرته أن يلدخ من المال ما يعينه على فتح مكتب مستقل به ويدفع أجور موظفيه .

وليس من شك في أنه نظم إبان اشتغاله بالمحاماة شعراً ، ولو قد وصل إلينا هذا الشعر لكشف لنا الغطاء عن حبة حية من تاريخ حياة الرجل قضاه في طنطا في مؤتلف حياته . ولكنه - مع الأسف - قد طمره إهمال حافظ مع ما طمره من أشعار كثيرة له .

٣

حافظ في المدرسة الحربية

لما لم يتيسر النّجح لحافظ في المحاماة فكر في عمل آخر ، وقد هداه تفكيره إلى السفر إلى القاهرة سنة ١٨٨٨ ليتحق بالمدرسة الحربية . وقد دفعه إلى ذلك - فيما أرى - أمران :

أولهما : أنه أراد أن يضمن لنفسه رزقاً منظماً يأتيه كل شهر .

وثانيهما : أنه كان معجباً بالبارودي أشد إعجاب ، وكان يعتبره مثله الأعلى وقُدوته الحسنة ، فأراد أن يكون رب السيف والقلم مثله ، يطير ذكره في الآفاق وتأنقسي إليه مهام الأمور . وكانت المدرسة الحربية في ذلك الحين لا تشترط للالتحاق بها شهادة خاصة ولا ثقافة معينة أكثر من اللياقة الطبية والقدرة على دفع خمسة عشر جنياً في العام . وكان حافظ فارغ الطول متين البنيان ، فاستطاع أن يلتحق بها في سهولة ويسر .

دخل حافظ المدرسة الحربية وفؤاده يكاد يثب من شدة الفرح ، لأن دخوله كان منتهى ما يتمناه كما يقول الأستاذ عبد الوهاب النجار (١) . وتطرحت سنون ثلاث خرج بعدها حافظ سنة ١٨٩١ يزهو بجلته العسكرية وعلى كتفه نجمة وفي جنبه سيف صقيل ، وقد ضمن رزقاً ثابتاً يجرى عليه كل شهر .

وكانت المدرسة الحربية في ذلك الحين واقعة في قبضة المستعمرين فغيروا برامجها بما يحقق أهدافهم وأقصوا عنها العناصر الصالحة (٢) . وكان غرض القائمين على أمرها ألا تكون مصنعاً لتخريج الأبطال ، وإنما تكون مصنعاً لتخريج شباب محطم الآمال قد خبثت في نفوسه جذوة الوطنية واستلمت منها روح الطموح والتوثب ، فكان معظم الضباط في ذلك العهد مثالا حياً للانهباء والتراخي ؛ لا يعرفون للوطن حقاً ولا يفكرون في أن يستنقذوه من مهاوى المذاة والعبودية . وكانت عقولهم خيلوا من الثقافة والمعرفة ، لا يشغلها شغل إلا التفكير في إرضاء ساداتهم الإنجليز والجرى وراء الترقيات والعلالات .

وكان صنيع المستعمرين في الجيش لا يقل نُكراً عن صنيعهم في المدرسة الحربية ، فقد قصوا أجنحته وأبعدوا عنه الضباط الوطنيين الذين كانت تلنظي في صدورهم نار الحقد على الاحتلال ورجاله . وأصبح الجيش أشبه بالفلول المتهافنة التي لا يُعتمد عليها في استرجاع أمجاد أو قهر أعداء ، وغدا الواحد منهم حرباً على أخيه المصري ليتقرب إلى الرؤساء زلقى . وشاعرنا حافظ يبين في وضوح ما كان عليه الجيش والمدارس الحربية في ذلك العهد من سوء الحال فيقول : « لقد استفرغوا جهدهم لصيرورة الجيش إلى الحال التي تراها فتمكنوا فيه من النفوس وحكموا على الضمائر فلم تخطأهم وساوس الصدور ولم تفهم خطرات الأفكار . » دخلوا مصر وفي جيشها من هم أولى سابقة في الفضل ونخصيص في العلم ، ومن حنكته السن وغذته التجربة وخبيطته الحروب ، فكانت ترى فيهم المهندس

(١) مجلة أبولو (يولية سنة ١٩٢٣) .

(٢) اقرأ ما صنعه الإنجليز في المدرسة الحربية في الجزء الثاني من كتاب « حقائق الأخبار »

لإسماعيل سرهنك .

الماهر والكيمياء الباهر والمحيط بفن الحرب وعلم التكتيك ممن تذاوقوا معهم سجال الحرب يوم طرقتنا ، فأشفقوا أن يكون هؤلاء أمام سياستهم صفاً صلباً فزحزحهم عن أماكهم حتى أصبح الجيش عطلاً من كل رجل ركين .

« ثم نظروا فإذا المدارس الحربية تغدو أشبال تلك الأسود لبان العلوم والمعارف فهاهم أمرها وأسرعوا في سلبها كنز علومها وتجريدها من حلئى فضائلها حتى أصبحت كالأخيذة السلية ، ثم يتمورها أسانذتها ، وأراد ربك فأمست وهى أشبه شىء بمصانع الدجاج . . . فأصبحت بفضل القوم كما ترى وقد جمدت فيها روح العلوم ونضبت سيول المعارف وأقفرت غرفها من نجباء التلامذة وقام ينقع فيها ذلك القائم بالأمر والنهى هناك ، وبات يطلبها كل قديم وجاهل كما تُطلب اليوم الضيعة الخربة » (١) .

هكذا كان حال الجيش ، وهكذا كان حال المدرسة الحربية فى هذا العهد المشنوم ، فلم يكن حافظ من دراسته فى هذه المدرسة أية ثمرة ثقافية وخرج منها ولم يُضيف إلى معارفه شيئاً سوى تعليقات ضئيلة من نظام الجندي خالية من التكتيكات العسكرية والفنون الحربية الأصيلة .

٤

حافظ الضابط

تخرج حافظ فى المدرسة الحربية وأصبح ضابطاً برتبة الملازم الثانى مختال فى بزمته العسكرية . ومن كان يرى هذا الرجل فى قامته المديدة وعضلاته المفتولة وهيكله الضخم وشاربيه الطويلين يوقن بأنه بطل مغوار يمتحم الأهوال ويركب المخاطر أو على حد قول المتنبي : "شروب للجيش أكل" . ولكنه كان على نقيص ذلك كما سيتبين فيما بعد .

(١) ليالى سطيح طبعة محمد مطر ص ٧٩ .

ويقول المرحوم الدكتور أحمد أمين : «على أنه يجيل لى أن حافظاً لم يُخلق رجل قتال . نعم كان منظره رجل حرب ، فهو مستحکم الحلقة ، وثيق التركيب ، مقتول الساعدين ، عريض المنكبين ، ولكن لا أظن أن قلبه يشاكل جسمه» (١) .

وقد عُين حافظ بعد تخرجه فى نظارة الحربية ومكث بها ثلاث سنوات ، ثم نُقل إلى وزارة الداخلية وعُين ملاحظ بوليس فى مدينة بنى سويف ، لأن رجال البوليس كانوا يؤخذون من الجيش ، إذ أن مدرسة البوليس لم تكن قد أنشئت بعد . وقد لبث فى بنى سويف بضعة أشهر انتقل بعدها معاوناً لبوليس الإبراهيمية . وبعد أن قضى فيها سبعة أشهر ردتته الداخلية إلى الحربية بسبب إهماله وتراخيه ، لأنه لم يكن يحسن عملاً ما ، فأحيل إلى الاستيداع أول مرة . ولما أراد « لورد كتنشر » إعادة فتح السودان والقضاء على ثورة المهدي رأى أن الجيش المصرى فى حاجة إلى ضباط فاستدعى حافظ من الاستيداع إلى الخدمة وأرسل إلى شرق السودان سنة ١٨٩٦ وأُلحق بسلاح المدفعية (الطبجية) ثم جُعِل بين القائمين على أقوات الجيش (التعمينات) .

وكان الجيش المصرى فى ذلك الحين أداة ذليلة طيعة فى أيدي المستعمرين كما قلنا ، ومن بقيت فى نفسه أثارة من الوطنية أقصى عن منصبه أو — على الأقل — نُبئ إلى أقاصى السودان . وكان المستعمرون الطغام يأخذون فى ذلك بالظنة والشبهة ، فاستسلم كثير من الموظفين وعلية القوم ، وران على نفوس المضرين شىء غير قليل من اليأس والتخاذل ، وغدا المصرى يشعر بأنه غريب فى وطنه ، ذليل فى مراح عزته . وما أبدع وصف حافظ للمصرى آنذاك حين يقول : « لذلك تكسرت فى المصرى الأظافر وبات مهضوم الجانب غير مرعى الجانب ، يعتوره الذل والخور وتأخذه سوء القالة ، وهو كأنه العمر كلما مر به يومٌ لحق به النقص » (٢) . وبلغ من ضعف النفوس عند بعضهم أن راح يتبرأ من الوطنية المصرية ابتغاء مرضاة المستعمر بعد أن فشلت الثورة المصرية بفعل

(١) مقدمة الديوان ص ٢٤ .

(٢) ليالى سطيح ص ٨٢ .

الحياة من أنصار الحديد ، وكُمّمت أفواه الصحف حتى غدت بوقاً للاستعمار ، ومن هجس في نفسه هاجس الوطنية من الصحفيين كان نصيبُ الصحيفة المصادرة والتعطيل . وأصبح الجيش البريطاني صاحب الأمر والنهي في البلاد . وكان من أهم أغراضه أن يظامن من عزة رجال الجيش المصري ، فكان الضباط الإنجليز يعاملون جيشنا أسوأ معاملة في مصر والسودان . وقد داخلت نفوس الضباط المصريين الرهبة ، وأخذوا ينظرون إلى الضباط الإنجليز وكأنهم خلَقوا من طينة غير طينة البشر . ويصف حافظ هذه الحال فيقول : « ينظر المصري إلى الإنجليزي وهو كأنه ينظر إليه بالنظارة المعظمة فيكبره رهبة وإجلالا ويتضعضع لرؤيته . وينظر إليه الإنجليزي بتلك النظارة وقد عكسها فيصغره استخفافاً بشأنه ، ويظيل عتاب الخالق الذي فطره على شكله وصورته ومنحه نعمة التنفس في جو يتنفس فيه الإنجليزي . وهو إن خاطبه خاطبه بلسان لا تجرى عليه كلمة تسروح منها روائح الرفق ، أو بإشارة يخالطها الجبروت ويزدهيها البطر» (١) . ويمضي حافظ مبيهاً حال كبار الضباط المصريين وضآلة شخصياتهم فيقول : « هذا شأن القوم مع الصغار من الضباط . أما الكبار منهم كبار الرتب والأجسام ، لا كبار النفوس والأحلام ، فحالم إلى الرحمة أدعى منها إلى اللوم . فلقد سقاهم ساقى السياسة الإنجليزية كؤوساً من منتوع الرعب . فإذا نظر أحدهم بعض كبار القوم أو صغارهم وقف أمامهم وقفة الجواد وقد رأى اللبث ، حتى إذا أصدر له أمره بعشيء كاد يخرج من ظله سرعة لإمضاء ذلك الأمر . فهو إلى إجابة داعيه أسرع من الصلدى ، وهو على حفظ أمره أحرص من الفونوغراف على حفظ الصوت . . . تراهم (أى كبار الضباط المصريين) وكأن أكتافهم سماء الدنيا وقد تزينت بالنجوم فيروك ما ترى ، ولو كشفهم لرأيت تحت تلك السماء أفئدة هواء .

فليت سيوفهم كانت عِصِيًّا وليت نجومهم كانت رجوما» (١)

(١) ليالٍ سطيح ص ٨٢ .

(٢) ليالٍ سطيح ص ٨٣ .

ثم يصف لنا حياة الضباط الإنجليزى فى الجيش المصرى ، وما كان ينعم به من جاه رفيع ومال وفير فيقول : « يهبط أحدهم مصرفاً هو إلا أن يشم نسيماً حتى يقابله الأمر بمنصب فى جيشها . فإذا سما من رتبة المأموز إلى رتبة الأمر وأصبح عطاؤه الذى كان لا يتجاوز أيام الأسبوع عدداً وقد تجاوز أيام الشهر ، ونقلته كيمياء القوة من معدن يرغب عنه إلى معدن يرغب فيه . وقذفت به يد الطمع من مناجم الفحم إلى كنوز الذهب ، وهبت ريح سعوده ونسى جلود جدوده - نظر إلى المصرى تلك النظرة التى أسلفنا وصفها » (١) . ثم يصف حافظ مبلغ استهانة هؤلاء الضباط الإنجليز بكرامة من يشتغل معهم من المصريين ومدى سوء معاملتهم لهم فيقول : « وقد جعلوا ثواباً لمن يتعلم العربية منهم فى وقت وجيز ، فترى قادمهم يصطفى بعض الترجمة أو المترجمين من الضباط فيأخذ عنهم مبادئ اللغة ، ولا يبدأ فيها إلا بحفظ كلمات الحُجر والفحش ، فإذا وعى منها كلمة وأراد استعمالها فيها وضعت له أسرع إلى المصرى فجيده بها من غير ذنب ، فتخرج من فيه وهى كأنها بعض حجارة المنجنيق ، فإذا أن لصدمتها ذلك المسكين أسرع سباً باللغة الإنجليزية ... ولقد مرت ببعضهم وهو يكاد يقطر غضباً وينشق غيظاً ، وأمامه مصرى قد انفجر فى وجهه بركان الغضب الإنجليزى ، فبحثت فى الأمر فإذا الإنجليزى حديث العهد باللغة » (٢) .

ويذكر حافظ أن الضباط الإنجليز القافلين من الهند كانوا أشد قسوة وأسوأ معاملة للمصريين من غيرهم فيقول : « والويل لمن يقع تحت سيطرة الإنجليزى قافلاً من الهند ، فإن رجله إلى لكز من يخاطبه أسرع من لسانه إلى سبه » (٣) .

كان هذا حال الضباط الإنجليز فى الجيش المصرى عامة ؛ نعيم مقيم ، وعيش رخى ، وجاه عريض ، وشعور بالاستعلاء والعُنْجَهية . وما أصدق حافظ إبراهيم وهو يصور حالهم قائلاً : ومن لم ير نعيم الدنيا أو يذق عيش الترف فليقدم

(١) ليالى سطح ص ٨٤ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ليالى سطح ص ٨٥ .

الجيش وينظر الإنجليزي في لين عيشه ورخاء باله بين مبتسم زمانه وعز سلطانه ،
 إذا صاح ابتدرت صبحته الألوف ، وإذا مشى قامت إجلالاً له الصفوف ،
 وإذا لبس القلنسوة كانت لها في النفوس رهبة التاج ، وإذا غضب تقطعت
 نخوف بطشه الأوداج . . . يهب من نومه فيتراعى الخدم على خدمته ، كلٌّ في
 شأنه الذي نُصِبَ له ، فإذا قضى لباتنه من مأكله ومشربه وملبسه قُدِّمَ له الجواد
 فاستوى عليه ومضى متباطئاً . . . »^(١).

أما سياستهم في السودان فكانت سياسة ماكرة خبيثة ؛ لحمتها التفريق بين
 رجال الجيش المصريين والسودانيين ، وسداها إيقاع العداوة والبغضاء بين القطرين
 الشقيقين ليستطيعوا الصيد في الماء العكر كما هو ديدنهم في كل بلد ابتلى
 باحتلالهم . وكان وكدهم من ذلك أن يسأم المصريون الإقامة في بلد يخذ عليهم
 ويتسخط عند سماع اسمهم ، وبذلك يخلو الجوللمستعمرين فيصنعون بالسودان
 ما يريدون .

وكانوا يحاولون استمالة السودانيين بمختلف الوسائل ويقولون لهم : « وقد علمتم
 ما لنا من الفضل على الجنس الأسود ، فنحن الأثني نزعنا عنه أطواق الرق
 والعبودية ، ونحن الأثني ساوينا بينه وبين الجنس الأبيض كما ساوى الربيع بين
 الليل والنهار »^(٢) . وكانوا يضحكون على ذقون السودانيين ولا يجدون عسراً في
 خدعهم والتسلل إلى نفوسهم بأساليبهم الدنيئة الاستعمارية ؛ فكانوا مثلاً
 يفضلونهم على المصريين في المعاملة حتى لقد قيل يومئذ : « إن الإنجليزي في
 الجيش مشغوفٌ بحب الأسود من الألوان ، عاملٌ بقول الشاعر الحكيم :

وما كل وجه أبيض بمبارك . ولا كل جفن ضيق بنجيب »^(٣)

ومما يدعو إلى الأسف حقاً أن بعض الضباط المصريين تطامنت عزتهم ،

(١) ليالي سطوح ص ٨٥ .

(٢) ليالي سطوح ص ٧٥ .

(٣) ليالي سطوح ص ٨٧ .

وردوا لو صيغ الله إهابهم باللون الأسود ليحفظوا من الإنجليز بمثل ما يحظى به السودانيون من طيب المعاملة ، « فأى مصرى لا يفتأ يضرع إلى الله أن يصبغ لون جلده بسواد جدّه ليحفظوا إلى السعادة هذه الخطوة ويحفظوا عند القوم بتلك الخطوة » كما يقول حافظ .

وكانوا يخشون أن يتمرد السودانيون عليهم ، قالوا على أنفسهم أن يبذلوا بين السودانيين أنفسهم بذور الحسد والشتان . وذلك بأن يُقبلوا على هذا ويزوروا عن ذلك ، ويرضوا عن زيد ويسخطوا على عمرو . وقرأ ما كتبه حافظ عن هذه الحال وهو شاهد عيان : « يمشى الكبير من الإنجليز في معسكر الجنود السودانية فيعثر بأولادهم وهم يلعبون فضلات الطعام وكأنهم وقعوا على ثمرة الغراب فيقف عليهم يتفرس فيهم ، ثم يختار من تدركه السعادة منهم فيقذفه بمنجنيق إرادته على أسوار المدرسة الحربية فلا يحول الحول حتى ترده إليه وعلى كتفه نجمان من نجوم النحوس فيغدو اليوم حاكماً على من كان يلتمس فضلات طعامهم بالأمس ، وربما كان فيهم عمه وأبوه » (١) .

وبعد ، فقد أطلت في الحديث عن سوء صنيع الإنجليز في مصر والسودان ، شعبهما وجيشهما ، ولكن ذلك شيء ليس منه بد ، فقد أُرسِل حافظ إلى السودان والحال كما وصفت ، فرأى من عنت الإنجليز واعتسافهم ما وصفه وصفاً طليئاً في « ليالى سطيح » فذابت نفسه حزناً . ولكن هل وقف وقفة الرجل الجريء القلب ، يواجههم مندداً بسياساتهم وسوء عملهم ، وهو الشاعر الذى يحس ويشعر ويحسن التعبير عن إحساسه وشعوره ؟

كلا ، لم يقف حافظ - مع بالغ الأسف - موقفاً وطنياً يُحمد له في هذا الزمن الأسود ، ولم يجرؤ على التنديد بسياسة المستعمرين إلا بعد أن ترك خدمة الجيش ، أو بعبارة أصح بعد أن أكرمه على تركها بسنوات حين ألف كتاب « ليالى سطيح » فيما بين سنتي ١٩٠٧ ، ١٩٠٨ . ومع ذلك فأنت تجدده يعرض

بالإنجليز في شيء من الرفق ، وتحس بأنه كان يحرق الأرم غيظاً لأنه لم يكن ذا حظوة عندهم .

وحين نقرأ الأشعار التي نظمها حافظ إبان خدمته في السودان نحس أنه لم يكن يتفجر غيظاً على جيشه الذي كان مستنلاً تحت جبروت الإنجليز . وكل ما كان يُحنقه ويُشقيه بعده عن القاهرة ومجالسها وسمراتها، واكتاؤه بقيظ السودان ورماله المحرقة . وقد وجد البون شاسعاً بين حياة القاهرة ولياليها الممتعة وبين حياة السودان القاسية القاتلة . لهذا كان يرسل أناته الحزينة إلى أصدقائه بالقاهرة مهيباً بهم أن يعملوا على نقله من هذا اللظى الذي يكاد يهترئ أديمه . وعلى رأس هؤلاء الذين استصرخهم حافظ الأستاذ الإمام محمد عبده، فقد كتب إليه واصفاً ما يعانیه :

« وهأنذا متماسك حتى تنحسر هذه الغمرة وينطوي أجل تلك الفترة، وينظر لى سيدى نظرة ترفعى من ذات الصدع إلى ذات الرجع ، وتردنى إلى وكرى الذى فيه درجتُ ردّ الشمس قطرة المزن إلى أصلها وردّ الوفى الأمانات إلى أهلها . فإن شاء فالقرب الذى قد رجوته وإن شاء فالعز الذى أنا آمل وإلا فإنى قاف رؤبة^(١) لم أزل بقيد النوى حتى تعول الغوائل فقد حلت السودان حلول الكليم فى الثابوت والمغاضب فى جوف الحوت بين الضيق والشدة والوحشة والوحدة . لا، بل حلول الوزير فى تنور العذاب، والكافر فى موقف يوم الحساب بين نارين : نار القیظ ونار الغیظ^(٢) . »

ويعضى حافظ فى شكواه للإمام مصوراً سوء حاله بالسودان ، وما يقاسيه من عنت سردار الجيش المصرى فيقول : « فأصبحت كما سر العدو وساء الحميم وآلامى كأنها جلود أهل الحميم ، كلما نضج منها أديم تجدد أديم ، وأمسيت

(١) هو الراجز رؤبة بن العجاج ، وكان يصنع أكثر أراجيزه على روى القاف الساكنة فنسب بقافه المثل فى السكون وعدم الحركة . ويقول أبو العلاء فى قاف رؤبة هذه :

مالى غدوت كقاف رؤبة تيمدت فى الدهر لم يقدر له إجراؤها

(٢) الديوان طبعة وزارة المعارف ١٢٥/٢ .

وملئك آمالي إلى الزوال أسرع من أثر الشهاب في السماء ، ودولة صبرى إلى
 الاضمحلال أحث من حباب الماء . « ويهيب به أن يخلصه من شقائه فيقول :
 نثرت منظوم تيجان الملوك بها فراح ينظمه في وصفك البال
 يا من تيمنت الفتى بطلعته أدرك فتاك فقد ضاقت به الحال (١)
 ويكتب إلى صديقه محمد يرم يصور برومه بالحياة في السودان ويتحسر
 على أيامه بالقاهرة فيقول من قصيدة :

ولكنى مقيدة رحالى بقيد العدم في وادى الموم
 نزحت عن الديار أروم رزقى وأضرب في المهامه والتخوم
 وما غادرت في السودان قفراً ولم أصبغ بتربته أديمي
 وما أنا بين أنياب المنايا وتحت برائن الحطب الجسم (٢)

ويرسل إلى صديق آخر أبياتاً ينتم فيها على هذه الحياة البغيضة المفعمة
 بالمشقة والإملاق ويبين لوعته المحرقة إلى مصر :

وما أعذرت حتى كاد نعلى دماً ووسادنى وجه التراب
 وحتى صيرتنى الشمس عبداً صبيغاً بعدما دبغت إهابى
 وحتى قلتم الإملاق ظفري وحتى حطم المقدار نابى
 متى أنا بالغ يا مصر أرضاً أشم بتربها ريح الملاب (٣)

ويردد ضيقه بالسودان في منظومة يرسلها إلى بعض أصدقائه منها :

من واجد منفّر المنام
 طريد دهر جائر الأحكام
 مشتت الشدل على الدوام
 ملازم للهم والسقام

.....

(١) الديوان ٥/١ .

(٢) الديوان ١٦٢/١ .

(٣) الديوان ١٢١/٢ .

تحية كالورد في الكمام
 أزهى من الصحة في الأجسام
 يا ليت شعري بعد هذا العام
 إليكم ترمي بي المرأى
 أم ينتسويني رائد الحمام
 فأنطوي في هذه الآكام
 وتولم الضبيع على عظامي

ويطلب إليهم أن يذكروه إذا انتظمتهم مجالس الأنس واللهو :

بالله أدعوكم وبالإسلام
 أن تذكروا ناظم ذا الكلام
 إذا جلستم مجلساً للجمام^(١)

وزاد من نقمة الشاعر على حياته بالسودان أن علاقته بسردار الجيش المصري (لورد كشتنر) كانت سيئة جداً . وقد امتلأت نفس «الورد» موجلة عليه حتى ليقال إنه كتب أمام اسمه « لا يرق ولا يرفق »^(٢) . وقد عبر حافظ عن ذلك في كتابه إلى الأستاذ الإمام مشيراً إلى ما كان بينه وبين السردار فقال : « واليوم أكتب إليك وقد قعدت همة النجمين وقصرت يد الجديدين عن إزالة ما في نفس ذلك الجبار العنيد . فلقد نما ضيب^(٣) ضغنه على وبلدت بوادر السوء إلى »^(٤) . ويقولون إن سبب بغض كشتنر له أنه كان مجافياً لروح الهندية ، إذ كان « غير معنى بنظام ولا مراعيًا حسن هندام »^(٥) . وإلى جانب ذلك « كان رئيس فرقته (رفعت بك) يكرهه ويرفع التقارير السيئة عنه ، إذ كان حافظ يعمل الأراجيز في ذمه يحدو بها هو وأصحابه ، منها قوله :

(١) الديوان ١٩٧/١ .

(٢) الديوان ١٢٩/٢ حاشية .

(٣) الضب : النيط والحقد الخفي .

(٤) الديوان ١٢٩/٢ .

(٥) مقدمة الديوان ص ١٣ للمرحوم الدكتور أحمد أمين .

تراه إذ ينفخ في المزمار تحسبه في رتبة السردار
يجتنب العاقل والنبها ويعشق الجاهل والسفها» (١)

وهكذا اصطلحت الظروف على أن تجعل حياة حافظ في السودان جحيماً لا يطاق . وزاد من كربه أن الحالة الاقتصادية في السودان بلغت من سوء نهايته ، حتى إنه كان يتعذر على الناس في بعض الأحيان أن يجدوا الضروري من مطالب العيش ، فعظم الحطب وتمت البلية . ويحدثنا الأستاذ أحمد محفوظ بأن حافظاً قال له : « لما كنت في السودان كنت أكتب الاستقالة من عملي في الجيش ظهراً حتى إذا أقبل الأصيل بنسأته مزقت الاستقالة » (٢) .

وليته بقي في وظيفته على هذه الحال المريرة ، فقد شاء القدر أن يسقيه كأس الشقاء حتى الثمالة ، إذ خلصه من شقاء السودان ليزجج به في شقاء آخر أعنف وأنكى ، فقد رماه في تيه الحياة لا يجد فيه مرتزقاً يكفيه شر الحاجة إلا ما قدّر له من معاش ضئيل لا غناء فيه .

ذلك أن الإنجليز بعد حادث فاشودة سنة ١٨٩٩ أخذوا يشددون قبضتهم على الجيش في السودان ، ويكبتون كل حركة وطنية تنهض فيه ، وأخذوا يجمعون السلاح من الجنود خوفاً من اندلاع ثورة ضدهم ، فخشى الجنود المصريون أن يبقوا في هذه المهامه بدون سلاح ، فتمرد فريق منهم وجاهروا بالعصيان وانحاز إليهم جماعة من السودانيين . ولكن الإنجليز لم يعجزوا عن اشتراء الضمائر والذمم ، فاستطاعوا أن يصلوا إلى نفوس الجنود السودانيين ووضعوا أيديهم على زعماء الثورة والمحرضين عليها على حد ظنهم ، آخذين البريء بالمدنب . ولندع حافظاً نفسه يقص علينا مهزلة التحقيق في هذه الثورة ، قال : « ثم أخذ (أى المحقق) ينظر في وجوه الحيل ويستنبط أمثل الطرق ، وما زال يستمد قريحته حتى فتن له الذهن أن يبدأ باستمالة الجنود السودانية ، فجعل يدعوهم ليلاً على انفراد ، فإذا ظفر بأحدهم هسّ له وأدنى متكأه وحادثه محادثة القرين ، وقد

(١) المصدر نفسه .

(٢) حياة حافظ إبراهيم ص ٢٩ .

طرح عنه أبهة الرئاسة وجلس معه على بساط المساواة ، حتى إذا سكنت نفسه إلى حديثه وعلم أنه خلبه بسياسته وكياسته طارحه حديث الثورة وما كان منها ، ثم أسترسل إلى ذكر أسبابها فقال إن الأمير حرسه الله واجد على الجيش لانتقاضه على أولياء الأمر فيه . وما غاب عنه أن أولئك المصريين الذين كفروا بنعمته كما كفروا بنعمة أبيه من قبل هم الذين استهووكم بالأباطيل . فما فعلوا ذلك إلا نكالاً بكم حين علموا أننا سنبلغ بكم أسمى المراتب فنجعل منكم الأمراء والحكام في السودان ، ثم نمكّن لكم في الأرض ... وما كنا لنعفو عنكم حتى تنكشف لنا بواطن الأمر فتعرف أولئك المصريين الذين نفخوا في مناخركم فركبتم رعوكم وطاوعم أهواءكم . . . فاذكروا لنا أسماءهم لتنظروا كيف تمثل بهم ، واعلموا أنكم لا ترون بعد اليوم إلا خيراً ولا يرون إلا شراً... يقول ذلك والقُدح لا يكاد يفرغه الزنجي حتى يملؤه الإنجليزي . فإذا نال منه الحديث وأخذت الخمر استملاه أولئك الذين يزعم أنهم جروهم إلى عدم الانقياد، فيُملئ عليه ما يحضره من تلك الأسماء ، ولا ذنب لأصحابها إلا أنها مرت بخاطر هذا الزنجي حين اضطره ذلك الإنجليزي . . .

« ولما اهتدى ذلك المحقق إلى ما لا تهتدى إليه الكهنة والمنجمون من معرفة الغيب ، وجمع في خريطته ما يربو على الثمانين اسماً خف إلى كبيره وقد حمل ظلماً . فوالذي علم آدم الأسماء كلها ما اشتملت خريطة المحقق على اسم وصاحبه غير مكذوب عليه » (١) .

ويذكر حافظ أن هذا الكبير نظر في قائمة المتهمين الذين يبلغون الثمانين فوجد أن هذا العدد يفوق من قاموا بالثورة العربية وقدّموا للمحاكمة . ثم مضى التحقيق في مهزلته ؛ فقد رأى هذا الكبير أن يضرب على هذا العدد الضخم بالقُداح . وشاء سوء الطالع أن يكون حافظ من بين الضباط الثمانية عشر الذين صادف النحاس أسهمهم ، فحوكوا وحكم عليهم بعقوبات مختلفة كان أهونها

الإحالة على الاستيداع . وكان حافظ من هؤلاء الذين عادوا إلى مصر وقد حيل بينهم وبين العمل في الجيش .

ويشير حافظ في شيء من المرات إلى ذلك فيقول : « ولقد كنت أحد أولئك الذين ضرب عليهم بالقдах وهأنذا وليس وراء ما بي من سوء الحال غاية » (١) .

وهكذا نرى حافظاً قد أقصى عن الجيش على كره منه ، مع أنه لم يشترك في هذه الثورة ، وقد حزن لما أصابه حزناً شديداً برغم ما كان يعانيه من قسوة الحياة في السودان . ومن العجيب أن المؤرخ الأستاذ عبد الرحمن الراجعي يريد أن يجلع على حافظ ثوباً من البطولة لا يحق له أن يرتديه فيقول : ولما انتهت الحملة بانفراد الإنجليز بحكم السودان عافت نفسه البقاء في ربوعه فالتمس إحالته إلى المعاش وأجيب طلبه وعاد إلى مصر » (٢) .

نعم كان حافظ ناقماً على حياته في السودان ، لا لأن الإنجليز انفردوا بحكمه كما يقول الأستاذ الراجعي ، ولكن لأنه كان لا يجتمل جو السودان ولا يطبق صرامة الجندية . هذا إلى أنه كان محروماً من المجالس الممتعة والسهرات اللطيفة التي كان يقضيها مع أصدقائه في القاهرة كما عرفنا من قصائده ورسائله إلى إخوانه . ولما عوقب بالإحالة على الاستيداع انفطرت نفسه حزناً وغماً لفقدته مرتبه . ونحن لا نتجنى على الرجل ولا نبخسه حقه ، ولكننا نريد أن نسجل الواقع معتمدين على حقائق التاريخ .

وكانت إحالته على الاستيداع في ٣ مايو سنة ١٩٠٠ ، وفي أول نوفمبر سنة ١٩٠٣ أحيل على المعاش بناء على طلبه . وكان مرتبه في الاستيداع أربعة جنيهات في الشهر .

(١) ليالي سطيح ص ٧٩ .

(٢) شعراء الوطنية ص ٩٦ .

حافظ بلا عمل

كان لهذا الحادث تأثير كبير في نفس حافظ ؛ فقد امتلأت باليأس والسخط على الدنيا وعلى من فيها ، وداخله شيء غير قليل من الخوف ، وتملكه ذعر شديد منعه من أن يبوح بشيء ما عن الثورة وعن التحقيق وعن المحاكمة ، وبخاصة وأنه رأى ما آل إليه أمر هذه الثورة وتفاعس الخديو عن مناصرتهم وإقالة عثرتهم بعد أن حرّموا وظائفهم بسببها ، وقد كان يُظن أنه راض عنها وأنه كان يُدسّكي نازها في الخفاء . وكان حافظ يعبر عن وجهه وتوجسه فيقول :

إذا نطقت ففقا السجن متكأ وإن سكتُ فإن النفس لم تطب (١)

وأخذ يبحث عن عمل يرتزق منه لأن معاشه كان ضئيلا لا يكفي حاجته ، فقدّمه الشاعر شوقي إلى جريدة الأهرام ليقوم بعمل فيها ، ولكنه لم يوفق ، فطفق يضرب في الأرض باحثاً عن عمل فلم يُصب شيئاً من النجح ، فساءت حاله ، وخالط نفسه اليأس ، وأخذ يصف بؤسه وإخفاقه فيقول :

سعتُ إلى أن كدتُ أنتعل الدما وُعدتُ وما أعبقتُ إلا التندما (٢)

ويشير إلى هذا الفشل برغم سعيه المتواصل ، وإلى ضآلة حظه في الحياة ، وتنكّر الزمن له ، مع أن همته لم تقعد به عن الطلب وبذل الجهد وراء الغاية ، فيقول :

ماذا أصبتُ من الأسفار والنصب وطيكَ العمر بين الوخذ والخبب
نراك تطلب لا هوناً ولا كتباً ولا ترى لك من مال ولا نشب
كم همّت في البيد والآرام قائلة والشمس ترى أديم الأرض باللهب

(١) الديوان ١١٦/٢ .

(٢) الديوان ١١٤/٢ .

وكم لبستُ الدجى والترّب ناعسة
لكننى غير مجدود وما فتئتُ
وقد غدوتُ وآمالى مُطرحة

والليل أهدأ من جأشى لدى النوب
يد المقادير تُفصيني عن الأرب
وفي أمورى ما للضّب في الذنب (١)

ويبلغ به اليأس حدّاً يجعله يطلب الموت، لأن فيه راحة له من هذا العناء :

سلام على الدنيا سلام مودّع
فهبى رباح الموت نُكْباً وأطفئى
فيا قلب لا تجزع إذا عضتك الأسى
ويا عين قد آن الجمود للمدعى
ويا قدى ما سرت بي لمذلة
فلا تُبطنى سيراً إلى الموت واعلمى

رأى في ظلام القبر أنساً ومغنا
سراج حياتى قبل أن يتحطما
فإنك بعد اليوم لن تتألما
فلا سيلّ دمع تسكين ولا دما
ولم ترتقى إلا إلى العزّ سلّما
بأن كريم القوم من بات مكرماً (٢)

ويرى أن المصريين في هذا البلد وعلى الأخص المسلمين منهم لا يجدون
خيراً فيه ولا يطيب لهم فوق ربوعه عيش :

إذا شئت أن تلقى السعادة بينهم
فلا تك مصرياً ولا تك مسلماً

وهذا الشجر يدل على نفس قد حطمها اليأس ومزقها القنوط، فراحت تشد
الموت الذى يخلّصها من هذه الحياة البغيضة وذاك العذاب المتصل :

وينحو حافظ باللائمة على والديه اللذين جنبا عليه وكان الأخاق بهما أن
يلقيا به في قاع الدأماء يدل أن يطرحا به في عالم التعب والشجب. ولعل «ماني»
قد قاسى في حياته ما يقاسيه حافظ فراح ينشر مذهبه الخبيث الذى ينادى
بقطع النسل لكى تفى البشرية وتخلص من آلام الحياة الدنيا :

وددت لو طرحوا بي يوم جشهم
لعل «ماني» لاقى ما أكابده

وقد امتلأت نفس حافظ بالعقد بسبب الحال التى صار إليها، ووقر في

(١) الديوان ٢/ ١١٦.

(٢) الديوان ٢/ ١١٤.

نفسه أن أمته لا تعرف له قدراً ولا تقيم لأدبه وزناً :
 عَفَى الدهر ولولا أنى أوتر الحسنى عَقَّتْ الأدبا
 أنا لولا ان لى من أمى خاذلاً ما بت أشكو النوبا^(١)
 وأصبح يشعر بأن الناس تخلّوا عنه ولم يعد له نصير في هذه الحياة ، يقول
 مخاطباً « تولستوى » الفيلسوف الروسى في رثائه :

فقد كنت عوناً للضعيف وإنى ضعيفٌ وما لى فى الحياة نصير^(٢)
 وهكذا نرى حافظاً بعد خروجه من الجيش يلقى ألواناً من قسوة الحياة ،
 وينظر إلى زميله « شوقى » فيراه يرتع في بُلهَنِيَّة من العيش فى ظل السراى ،
 فيطوى نفسه على مرارة محرقة ويتشوّف إلى أن يظفر بشيء من الحظوة لدى
 الخديو فيتهب كل فرصة ليزجى إليه عقوداً منظومة من المديح ... يُقبل عيد
 الفطر فيزف إليه تهنئة ممزوجة بالرجاء أن ينال شيئاً من العطف والتقريب ،
 يقول فيها :

إلى سُدة العباس وجهتُ مدحتى بهتنة شوقية النسج معطار
 ملكٌ أباح العيدُ لثم يمينه ويا ليت ذلك العيد يبسط أعدارى
 ويحمل عنى للعزير تحية ويذكر شيئاً من حديتى وأخبارى^(٣)

وحافظ - كما ترى - يجعل شوقى (شاعر السراى) قدوته فى نظم الشعر ،
 وبذلك يشعره بأنه لا مطمع له فى منافسته لو قدر له أن يحظى بشيء من
 تقريب الخديو له . وهو كذلك يشير إلى أنه لم يستطع الوصول إليه ليحظى بلثم
 يمينه الذى أباحه العيد ، ولذا فهو يعتذر عن تقصيره .

ويقبل عيد جلوس الخديو فينظم له تهنئة فيها تطامن* وتضائل أمام الخديو
 وشاعره شوقى ، وفيها التماس المَعذرة إذا عجز شعره عن إيفاء الخديو ما هو خليق
 به من مدح ، لأن شوقى لم يبق له معنى يقوله :

(١) الديوان ٧/٢ .

(٢) الديوان ١٦٤/٢ .

(٣) الديوان ١١/١ .

لم يُبق « أحمدُ » من قول أحاوله في مدح ذاتك فاعذرنى ولا تعيب
فلستُ ممن سميتُ بالشعر همهم إلى الملوك ولا ذاك الفتى العربي
لكن عيدك يا « عباس » أنطقني كالبدرا أنطق صوت البلب الطرب^(١)
وهو يشير كذلك في هذا الشعر إلى أنه لا يتطال إلى فن شوقي ولا إلى
مكانته لدى الأمير .

ويُسرف حافظ في تملقه فيضني على الخديو ألوانا من المديح ربما لم يسمع
الخديو بمثلها من شاعره الأثير شوقي ؛ فهو الذى تحرسه عين الإله وترعاه
الشهب ، وهو الخليم العادل الذى يزيل عن المكروب كربته ، وهو الكريم
النَّجار العريق الحسب :

والملك فوق سرير المملك تحرسه عين الإله وترعى أعين الشهب
الخلم حليته والعدل قبيلته والسعد محتته كشافة الكروب
مشيئة الله فى العباس قد سبقتُ إلى الحدود ومن يأتى على العقب
فهو ابن أكرم من سادوا ومن ملكوا وهو الأب المفتدى للسادة النجيب

ولا يقنع حافظ بذلك ، إذ يذكر أن هذا الذى يقوله لا يجافى الحقيقة ،
لأن ما يقال فى مدح الخديو لا لغو فيه ولا بهتان ، وبذلك قضى على الفكرة
التي سادت بين أدباء العرب من أن « أعذب الشعر أكذبه » . وذلك لأن الخديو
يعصم المديح الذى يقال فيه عن الكذب ، لأنه جدير به :

يا من توهَّم أن الشعر أعذبه فى الدوق أكذبه أزريت بالأدب
عذبُ القريض قريض بات يعصمه ذكر « ابن توفيق » عن لغو وعن كذب
ويهلُّ عيد الأضحى فيزف إليه مدحة لم يترك درة من درر المديح إلا نظمها
فيها على حد قوله :

صغمتُ القريض فا غادرتُ لؤلؤة فى تاج « كسرى » ولا فى عقده « بوران »
أغريتُ بالغوص أقلامى فا تركتُ فى بلجة البحر من درر ومرجان^(٢)

(١) الديوان ١٣/١ .

(٢) الديوان ٢٨/١ .

وفي هذه القصيدة يصرّح في غير موارد بأمله في أن يقربه الخديو :
يا عيدُ ليت الذي أولاك نعمته بقرب صاحب مصر كان أولاني
وفي تهنته للخديو بالعام الهجري يضرع إليه أن يلحظه بنظرة تدفع عنه
بأساءه ، لعله يسعد في هذا العام الجديد :

وكم لحمة في غفلة الدهر نفستُ هموماً لها بين الضلوع سعير
فقد يشقى الصب السقيم بزورة وينجو بلفظ عائرٍ وأسير
عسى ذلك العام الجديد يسرنى ببشرى وهل للبائسين بشر
وينظر لي رب الأركمة نظرة بها ينجلي ليل الأسى وينير^(١)

ولكن ذلك كله لم يُجده فيللاً ولم يحظ من الخديو بالنظرة التي كان ينتغيها ،
وعاش مُعذماً أكثر من عشرين سنوات بعد عودته من السودان سنة ١٩٠٠ إلى أن
من الله عليه بوظيفة في دار الكتب . ومع ذلك لم يكف عن محاولة التقرب من
الخديو حتى إنه لم تغمره الغبطة حين أنعم عليه برتبة « البكوية » سنة ١٩١٢
إلا لأنها سبيلٌ إلى ذهابه مختالاً إلى عابدين ليُلم يد الخديو محتشاً مطية الرجاء :

وأمشى اختيالاً إلى عابدين يطالعي بدرها عن كُتب
وألم كف كريم الجدود غياث العفاة مزيل الكُرب
وأحتت بين وفود السراة مطايا الرجاء لذاك الرب^(٢)

ومع كل ذلك لم يُقدّر له أن يحظى بمكان في السراي . غير أن تعطله عن
العمل هذه الفترة قد أجدى عليه من ناحية أخرى ، ذلك أن صلته اشتدت
بالإمام محمد عبده وأصبح تلميذه الوفي المخلص ، حتى إنه فلما كان يفارق مجالسه ،
وستناول ذلك بشيء من الإفاضة في مكان آخر .

(١) الديوان ٣/١١ .

(٢) الديوان ١٧٦/١ .

حافظ وحواء

في سنة ١٩٠٦ رأى حافظ أن يؤنس حياته بزوجة تقاسمه لأواء العيش وسرأه . ويقولون إن أمه هي التي زينت له الحياة الزوجية فخطبت له ابنة رجل من أثرياء حى عابدين اسمه « إسماعيل صبرى » (١) . وبني بها حافظ ، ولكنه لم يُطلق هذه الحياة وأدركه داء الملل الذي عُرف به فطلّقها بعد شهر قليلة ، وافترق الزوجان إلى غير رجعة . ولم ينجب حافظ منها ، ولم يفكر في الزواج بعد ذلك قط . ولم نجد لهذه المرأة أثراً في حياته .

وفي سنة ١٩٠٨ قضت أمه ، وبعد قليل لحق بها خاله « محمد نيازي » ولم يبق له من ذوى رحمه إلا أرملة خاله « الست عائشة هانم » التي لم تُترزق بأولاد ، فعاشت معه تعنى بشئونه وتدبير له أموره ، وكان حافظ شديد البر بها ، وظلت معه حتى لبت نداء ربها قبل وفاته بثلاث سنين .

ويبدو لنا من حياة حافظ أن المرأة لم يكن لها مكان ما في نفسه ، ولم يكن لها كبير أثر في شعره . وذلك لأن ضيقه بالحياة وسعيه وراء الرزق كانا يملآن مجال تفكيره وجدانه .

وإنك لو تصفحت ديوانه الضخم لوجدت أن الغزل لم ينل منه أكثر من ثلاث صفحات (٢) ، وكلها مقطوعات قصيرة لا يزيد بعضها على البيتين ، وبعضها مترجم عن « جان جاك روسو » . وهذه المقطوعات لا تدل على نفس تتعها الحب وتيسمها الغرام . ومن الغريب أن هذه الأبيات الغزلية — على قلتها — تكاد تنصرف كلها إلى المذكر فيما عدا بيتين اثنين خص بهما المرأة وهما :

(١) حياة حافظ لإبراهيم ص ٩٢ .

(٢) الديوان ٢٤٦/١ وما بعدها .

أذِنْتُكَ تَرْتَابِينَ فِي الشَّمْسِ وَالضُّحَى فِي النُّورِ وَالظُّلْمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ
وَلَا تَسْمَعِي لِلشُّكِّ يَخْطُرُ خَطْرَةً بِنَفْسِكَ يَوْمًا أَنِّي لَسْتُ مَغْرَمًا
وَأَنْتِ غَيْرِ وَاجِدٍ فِي هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ نَفْحَةَ الشَّعْرِ الْعَاطِفِي ، وَلَكِنَّكَ تَحْسِنُ
فِيهِمَا أَثَرَ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ .

والحق أن حافضاً لم تكن له هذه العاطفة التي تزخر بالحب ينساب غزلاً
وهياماً . وقد أشار إلى ذلك أستاذنا المرحوم أحمد أمين فقال : « كما أن عاطفته
ليست من هذا النوع الذي يذوب رقة في غزل أو هياماً في حب » (١) .
والواقع أن الحب عاطفة إنسانية نبيلة تملأ القلب بمشاعر الرحمة والحنان .
ولست أقصد الحب الذي يكون بين العاشق والمعشوقة فحسب ، وإنما أقصد
الحب العاطفي بمعناه الأعم ، كالذي يكون بين الرجل وزوجته أو بينه وبين
ابنته كما فعل شوقي . وقد حُرِّمَ حافظ هذه العاطفة . وسر ذلك - فيما أرى -
أن المرأة قد أفلتت من أفق حياته بسبب الظروف التي اختلفت عليه .

ولئن كانت حياة حافظ الخاصة ومشاعره وقلبه قد خلعت من المرأة أو كادت
فإنه قد أسهم بشعره في الدفاع عنها ورفع الصوت مطالباً بإنصافها والعناية بتثقيفها .
وليس ذلك بالأمر العجيب ؛ فقد كان يغشى مجلس قاسم أمين نصير المرأة
الأكبر ويستمع إلى آرائه في المرأة وتحريرها من ذل الإِسَارِ الذي رتق حياتها
قروناً طويلة . وفي ذلك يخاطب قاسم أمين :

وَلَمْ يَفْقَهُوا فِي السَّفَرِ مَا أَنْتَ كَاتِبُهُ	أَقَاسِمُ إِنَّ الْقَوْمَ مَاتَتْ قُلُوبُهُمْ
فَمَنْ ذَا تَنَادِيهِ وَمَنْ ذَا تَعَاتِبُهُ	إِلَى الْيَوْمِ لَمْ يُرْفَعْ حِجَابُ ضَلَالِهِمْ
لَوْضِعِ كِتَابِ لاسْتِقَامَاتِ رَغَائِبِهِ	فَلَوْ أَنَّ شَخْصًا قَامَ يَدْعُو رِجَالَهُمْ
يَلُوحُ بِحَيَاةِهَا لَنَا وَنَرَاقِبُهُ	وَلَوْ خَطَرَتْ فِي مِصْرٍ حَوَاءَ أَمْنَانَا
تَصَافِحِ مَنْ مَنَّا مِنْ تَرَى وَتَخَاطِبِهِ	وَفِي يَدَيْهَا الْعِندَرَاءُ يَسْفِرُ وَجْهَهَا
وَجَيْشٍ مِنَ الْأَمْلَاقِ مَا جَتِ كَوَاكِبُهُ	وَخَلْفَهُمَا مُوسَى وَعِيسَى وَأَحْمَدُ

وقالوا لنا : رفع النقاب محلل لقلنا : نعم حق^١ ولكن نجانبه^(١)
 فهذه الأبيات فيها صيحة مصلح مخلص في بيئة متخلفة لا يستطيع فيها
 أن ينصف المرأة إلا في حقوقها الأولية . والأبيات - كما ترى - كلها هجوم
 قاس وتهكم لاذع بأنصار الحجاب .

ولحافظ قصيدة غراء مشهورة بين فيها دور المرأة في النهوض بالوطن ، ودعا
 إلى الأخذ بيدها وتحريرها في شيء من القصد والاعتدال .. يقول فيها :

من لي بتربية النساء فلنأبى	في الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتها	أعددت شعباً طيب الأعراق
أنا لا أقول : دعوا النساء سوافراً	بين الرجال يجلسن في الأسواق
يدرجن حيث أردن لا من وازع	يحذرن رقبتن ولا من وافي
يفعلن أفعال الرجال لوأهياً	عن واجبات نواعس الأحداق
كلا ولا أدعوكم أن تسرفوا	في الحجب والتضييق والإرهاق
ليست نساؤكم أثأماً يُقتتى	في الدور بين مخادع وطباق
فتوسطوا في الحالتين وأنصفوا	فالشر في التقييد والإطلاق ^(٢)

وقد أشاد حافظ بجهاد المرأة واشتراكها في الحركة السياسية إبان ثورة سنة
 ١٩١٩ ، وله في ذلك تونية مشهورة فيها سخرية لاذعة بجنود الاحتلال حين
 قاوموا مظاهرة النساء ، مطلعها :

خرج الغواني محتججاً	بن ورحت أرقب بجمعهته
وفيه يعرض بالجيش الإنجليزي بعد أن شئت جموع السيدات :	
فليأبى الجيش الفخو	ر بنصره وبكسر هنه
فكأثماً الألمان قد	لبسوا البراقع بينهنه
وأثوا (بهندنبرج) مخ	تفياً بمصر بقودهنه

(١) الديوان القديم ٨١/١ طبعة ١٩٠٣ ، ويلاحظ أن هذه القصيدة غير موجودة
 في ديوان وزارة المعارف .

(٢) الديوان ٢٧٩/١ .

فلذلك خافوا بأسم "ن" وأشفقوا من كيدته^(١)
ونستطيع أن نقرر أن المرأة قد عاشت في عالم حافظ، وإن لم يخامر حبا قلبه .

٧

حافظ الموظف بدار الكتب

أحسن حافظ بشرة الحاجة فسعى لدى ناظر المعارف حينذاك المرحوم « أحمد حشمت » ، وكان رجلاً كريماً يقدر الأدب والأدباء ، فرقّ لحاله وعيّنّه في فبراير سنة ١٩١١ في وظيفة بدار الكتب المصرية تحت الاختبار بمرتب قدره ثلاثون جنيهاً ، وفي أول إبريل سنة ١٩١٢ صدر قرار بتشيته في وظيفته . وفي ٧ فبراير سنة ١٩١٦ عُين رئيساً للمغربين بالدار . وفي سنة ١٩٢٧ - وكان في الخامسة والخمسين من عمره - طلب إحالته على المعاش على أن يُعطى مرتباً شهرياً قدره خمسون جنيهاً لأنه أسدى إلى دولة اللغة والأدب خدمات جليلة كما يقول ، ولكنه لم يُجب إلى طلبه .

وقد ظل مرتبه يربو إلى أن بلغ ثمانين جنيهاً ، وأحيل إلى المعاش في ٤ فبراير سنة ١٩٣٢ .

وقد أراد المرحوم « أحمد حشمت » أن يقدم للشاعر صنيعاً آخر فسعى لدى أولى الأمر حتى حصل له على رتبة البكوية سنة ١٩١٢ ، ثم مُنح نيشان النيل من الدرجة الرابعة في السنة نفسها .

والذين اتصلوا بحافظ أثناء عمله بدار الكتب يذكرون أنه كان لا يستقر على كرسية في الدار إلا إذا أكرمه على ذلك ، كأن يحتجزه مثلاً الأستاذ لطفى السيد - وكان مديراً للدار فترة ما - لمعاونته في مراجعة ترجمته لكتاب

(١) الديوان ٨٧/٢ .

الأخلاق^(١) . ويقول زميله في العمل الأستاذ أحمد محفوظ: «وربما مضى الأسبوع والأسبوعان والثلاثة وهو لا يأتي إلى عمله ، وإذا جاء جال في أهواء الدار جولة قصيرة يضحك هذا ويمزح ذاك ، ويتنادر ويحدث وهو واقف أو سائر»^(٢) . وإذا نضا عن نفسه ثوب الممازحة كان حديثه مع الموظفين لا يعدو محيط العلاوات والترقيات وما شابه ذلك من أمور . ولم تكن له طاقة على العمل ، ولهذا قلما كان يُلفَى جالساً إلى مكتبه ، وفي ذلك يقول الأستاذ محفوظ: «وكان قدوة للموظفين غير حسنة ، لأننا كنا نترك أعمالنا ونتحلق حوله ونحادثه ويضحكنا ويتنادر علينا وينشدنا شعره ، وكان يأتي العمل ويأتي الاحتجاز ويأتي القيود، فلذلك كان يخاف المجهول الخيء في صدور رؤسائه الجدد ، فهو جزع دائماً خائف دائماً»^(٣) . ولذلك كان لا يأتي مدير جديد للدار إلا توهم حافظ أنه سيكشف إهماله وأنه سيضيق به ، وأنه معزول أو محال على المعاش . ومن أجل هذا كان كثير السؤال عن الفرق بين الراتب والمعاش ، ويقول: «الرزق على الله» .

وكان حافظ يخرج من بيته ويتجه إلى الدار أحياناً فيمكث فيها قليلاً ، ثم يُهرع إلى خارجها فيلتقي بأصدقائه غالباً في مقهى «جراسمو» أو مقهى «متايا» أو «بار اللواء» وهناك يلتفون حوله حيث ينعمون بما ينفعهم به من طيبات الأحاديث . وسنشير إلى مجالسه هذه في موطن آخر .

ويذكر المرحوم الدكتور أحمد أمين أن هذه الفترة التي قضاها موظفاً بدار الكتب «كانت فترة نضوب في شعره وجمود في قريحته إلا نادراً . فكان منصبه نعمة عليه ونقمة على فنه ، ومنفعة له ومضرة على الناس . ولعل أيام يؤسه الأولى روعته وأفزعته حتى قامت شبحاً دائماً أمام عينه تنذرهُ بالويل والثبور وعظائم الأمور إن هو أصيب في منصبه أو مُسَّ في مرتبه»^(٤) . وهذا

(١) من مقال المرحوم الدكتور زكي مبارك في كتاب «ذكرى الشاعرين» ص ٤٩ .

(٢) حياة حافظ إبراهيم ص ١٦٠ . (٣) المصدر نفسه .

(٤) مقدمة الديوان ص ١٩ .

القول يدل - في رأيي - على وهن في طاقة حافظ الفنية ، لأنه يقتصر الشعر على أمور السياسة والوطنية . وكان في مكنة حافظ أن يناهى بنفسه عن مثل هذه الأمور التي تمسه في منصبه أو في راتبه ويعوج على فنون الشعر الأخرى - وهي فسيحة - فينظم فيها شعره إذا اختلجت في نفسه المشاعر ، مثل الوصف - وما أوسع أكتافه - والعروبة والأبجد القديمة وغير ذلك من دواعي القول التي تشحذ القريحة وتدفع إلى نظم القريض .

ولكن حافظاً قد قصر جهده الفني عن أن يتناول فنوناً أخرى كانت أخلق بالتناول ، لأنها تبين انطباعات الشاعر وانعكاسات أسرار الكون في نفسه . وتقصيره في هذه الناحية يدل على أن أفته الفني لم يكن من السعة بحيث يتناول كثيراً من الجوانب الشعرية .

٨

وفاة حافظ

كان حافظ في السنين العشر الأخيرة من حياته كثير القلق على صحته . وكان يتوهم المرض في نفسه ، ولا يسمع بعلته من العلل إلا سأل عن أعراضها وأيقن أنه مصاب بها ، وشرع يعالج نفسه منها .

وكان حافظ قد أصيب بمرض السكر ، وحاول أصحابه أن يحملوه على التداوي من هذا الداء ، ولكنه كان ينتظم في العلاج أياماً ثم ينقطع . وقد حاول المرحوم داود بركات رئيس تحرير « الأهرام » إقناعه بمواصلة العلاج (١) ، فلم يفلح ، لأن حافظاً كان ملولاً بطبعه ، فأهمل العناية بصحته ، واستشرى دأؤه وانتابته علل أخرى كلما تقدمت به السن فزاد ذلك من أوهامه . وكان كلما

(١) مجلة أبولو عدد يولييه ١٩٢٢ ص ١٢٣٨ .

قضى واحد من أصدقائه أصابه الذعر وأحس بشبح الموت يقترب منه . وقصائده التي نظمها في أخريات أيامه في مناسبات مختلفة تشير في معظمها إلى هذه الحالة النفسية التي كان حافظ يعاني منها الكثير . يقول من قصيدة في ذكرى الإمام محمد عبده سنة ١٩٢٢ :

قد وقفنا ستة نبكى على عالم المشرق في يوم عصيب
وقف الخمسة قبلي ففضوا هكذا قبلي وإني عن قريب
وردوا الحوض تباعاً ففضوا بانفاق في منايهم عجيب
أنا مذ بانوا وولتي عهدهم حاضر اللوعة موصول النحيب^(١)
ويتوقع أن يخترمه الموت بين آونة وأخرى ، وبخاصة بعد أن قضى صديقه (حفي ناصف) فيقول من القصيدة نفسها :

آذنت شمس حياتي بمغيب ودنا المهل يا نفس فطبي
قد مضى « حفي » وهذا يومنا يتداني فاستثبي وأنيبي
اذكري الموت لدى النوم ولا تغفلي ذكرته عند الهبوب
وإذ ذاك نراه ينيب إلى الله ويهيب بنفسه أن تتزود للأخرة ، فخير الزاد التقوى :

واذكري الوحشة في القبر فلا مؤنس فيه سوى تقوى القلوب
قدمي الخير احتساباً فكفي بعض ما قدمت من تلك الذنوب
ويحس بأنه قد آن له أن يستريح من هذه الدنيا المليئة بالأوصاب :
حنّ جنباي إلى برود الثرى حيث أنسى من عدو وحبيب
مضجع لا يشتكي صاحبه شدة الدهر ولا شد الخطوب
وفي الجامعة الأمريكية ببيروت يقام له حفل تكريم فينشد قصيدة بهذه المناسبة ، ولا ينسى أن يلدس فيها توجسه وإحساسه بقرّب منيته :

شاهدت مصرع أترابي فبشرني بضجعة عندها رَوْحِي وريحاني
كم من قريب نأى عني فأوجعني وكم عزيز مضى قبلي فأبكاني

من كان يسأل عن قومي فإنهم ولّوا سراعاً وخلّوا ذلك الواني
إني ملّيتُ وقوفي كل آونة أبكى وأنظّم أحزاناً بأحزان^(١)
والظاهر أن إحالته على المعاش كانت نذيراً له بدنوا أجله وكان لا يخفى
على أصدقائه شعوره بهذا . وفي الشهور الأخيرة ثقلت عليه علته ، ولكنه كان
لا يلزم داره إلا إذا أقعده المرض ، فإذا أحس بنعمة العافية تسرى في بدنه
غادر بيته وأسرع إلى أصدقائه ، ولكن سرعان ما يعاوده المرض فيلبث في فراشه
قلقاً على حياته . وظل هذا شأنه بعد إحالته على المعاش .

وذات يوم اشتدت عليه العلة ، وكان قد دعا صديقه « إبراهيم راتب »
وآخر لتناول طعام العشاء معه ، ولكنه لم يستطع مشاركتهما الطعام فتمدد على
مقعد بالقرب منهما يؤنسهما بحلو حديثه ، وهو يعتقد أن برداً خفيفاً قد أصابه
سينصرف عنه بعد حين . وبعد أن غادره صديقه أحس بالمرض يُدّنفه ،
فاستدعى الخادم ليناوله الدواء ، ولكنه لم يشعر بشيء من الراحة وأحس بالألم
يشتد ويكاد يهصره .

ولما كان الخادم يعرف ما بين سيده والمرحوم (عبد الحميد البنان) من
علاقة قوية فقد استدعاه بالتليفون ليسرع بإحضار طبيب ، فجاء على عجل
ومعه الطبيب إلى منزل حافظ بكويرى القبة ، فوجدنا الشاعر في التزع الأخير
لا يقوى على النطق بكلمة وداع ، ثم ما لبث أن ودع أنفاس الحياة الدنيا وقد
ناهر الستين من العمر . وكان ذلك في الساعة الخامسة من صباح يوم الخميس
٢١ يولييه سنة ١٩٣٢ ، ونعاه إلى مصر والعالم العربي صديقه إسماعيل شيرين مدير
المطبوعات في ذلك الوقت ، فكان الجزع عليه شديداً . وشُيع إلى جده في
الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم^(٢) ، وقد سار في جنازته عليه القوم وأهل
الفكر والأدب . وكان أشدهم حزناً عليه المغفور لهما الشيخ عبد العزيز البشري
والشاعر خليل مطران . وصلى عليه في جامع الكخيا ، ثم دُفن في مقابر السيدة نفيسة

(١) الديوان ١/١٣٣ .

(٢) صحيفة الأهرام بتاريخ ٢٢ يولييه سنة ١٩٣٢ .

رحمه الله . وقد رثاه على القبر الأستاذ عباس محمود العقاد والمرحوم الشاعر محمد
الهرأوى . وكان صديقه المرحوم «محمد محمود باشا» يتقبل فيه عزاء المعزين . وبذلك
خمد صوت طالما جليجل في سماء الوادى وصدح على ربوعه بمختلف الألحان .

٩

أخلاقه وشخصيته

لم يذق حافظ للراحة طعماً طول حياته ، فقد مات والده وهو طفل ،
وخلف له اليتيم والإملاق ، وحاربه الزمان حرباً لا هوادة فيها ؛ فقد برم به
خاله وشعر بأنه كل عليه ، ولم يطب نفساً لمهنة المحاماة . ثم هيات له الأقدار
وظيفة ضابط بالجيش يأتيه منها رزقه رغداً كل شهر ، ولكنها طوحت به إلى
السودان ، فقامى هناك الكثير من العنت والإرهاق ووقدة الحر ، وكان رجلاً
لا يقوى على تحمل متاعب الجندية ومقتضياتها ، فضاقت بالحياة في السودان ،
وأخذ يستصرخ من يعرفهم من الكبراء في رسائل شعرية ونثرية طالباً إليهم أن
يخلصوه من هذه الحياة البغيضة . وكان الأقدار أرادت أن تخلصه من بأساته
في السودان ولكن بطريقة مؤلمة عنيفة ، إذ وُجّهت إليه تهمة أُحيل بسببها إلى
الاستيداع ، فغادر السودان إلى مصر ، ثم أُحيل إلى المعاش . وكان المرتب
الذى يتناوله من معاشه ضئيلاً لا يكاد يني بمطالبه . فأخذ يطرق الأبواب باحثاً
عن عمل مناسب ، ولكنه لم يوفق ، وقدّمه شوق شاعر السراى إلى جريدة
الأهرام ليتولى عملاً فيها فلم يتم له ما أراد .

وقد عزّ على حافظ أن يرى بهذه الأرزاء وهو في مستهل حياته وفي فجر
شبابه ، وكان ذا نفس شاعرة وحس مرهف ، فضاقت بالحياة وبالناس ، وتقم
على قومه الذين لم يعرفوا قلبه :

فأنت يا مصر دار الأديب ولا أنت بالبلد الطيب^(١)
ويقول في حسرة تعصر الفؤاد :

لكنني غير مجدود وما فتئت يد المقادير تفصيني عن الأرب
وقد غدوتُ وآمالي مُطرحة وفي أموري ما للضب في الذنب^(٢)
وفي شيء من المرارة المحرقة يقول :

فلم يغن شيئاً ولم يجدهم ولم يبيت إلا بقاء الحب
فلا سبق لي في مجال النهي ولا لي يوم الفخار الغلب^(٣)
ولا ينفك يردد خذلان أمته له وتحالفها مع الزمن لمحاربه ، وينعى عليها
عيبها وانصرافها عن أمور الجدد :

عنى الدهر ولولا أني . أوثر الحسنى عقتت الأديبا
أنا لولا أن لي من أمي خاذلا ما بت أشكو الثوبا
أمة قدت في ساعدها بغضها الأهل وحب الغربا
تعشق الألقاب في غير العلا وتفدي بالنفوس الرتبا^(٤)

وكان سبي الظن في أمته قليل الثقة بها ، حتى إنه ينعى على النيل وفاقه
لهذه الأمة الكنود فيقول في « ليالي سطيح » : « ويحك ، إلى متى يسع حلمك
جهل هذه الأمة المكسال ، وإلى كم تحسن إليها وتسيء إليك ؟ علمت أن
سيكون منك الوفاء فلم تحرص على ودك واتكلت على حلمك وبالغت بعد
ذلك في عقوقك . . . وأمعنت في العقوق فجعلتك مصرفاً لفضلات البطون ،
ثم أمعنت في العقوق فصيرتك مقبرة للجيف لتصبح بذلك مجرى البلاء ومستودعا
للوباء »^(٥) . ثم يذكر مبلغ تنكر الأمة للنابعين من أبنائها ومحاربتهم إياهم في

(١) الديوان ٢٥٦/١

(٢) الديوان ١١٦/٢

(٣) الديوان ١٧٦/١

(٤) الديوان ٧/٢

(٥) ليالي سطيح ص ٣

غير هوادة فيقول : « ينبغ فيها النابغة فينبعث أشقاها للطعن عليه ، فلا يزال يكيد له حتى يبلغ منه . ويكتب فيها الكاتب فينبى له سفيها فلا يفتأ ينبج عليه حتى ينشب فيه نابه ويفسد عليه كتابه . ويشعر فيها الشاعر فيحمل عليه جاهلٌ فلا ينفك عنه حتى يغلبه على أمره ويقهره على شعره » (١) .

وكان حافظ ينظر حوله فلا يرى من ذوى رحمه من يحلب عليه أو يبته شكواه وآلامه :

وما لى صديق إن عثرتُ أقالنى وما لى قريب إن قضيتُ بكافى (٢)
ولكنه وجد أن شكواه لم تُجد وأن صرخاته تذهب أدراج الرياح فانقلب
إلى رجل مستخف بالدنيا ساخر من الناس والأحداث .

وكان حافظ رجلا حلوا الشئائل نقي السريرة مُوطأ الأكناف يأنف ويؤلف .
كان كما يصفه المرحوم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني « كماء النبع الصافي
الذى لم يمتزج بعد بتراب الأرض وأقذارها » (٣) . وكانت شخصيته واضحة
لا التواء فيها ولا تعقيد ، يستطيع المرء أن يصل إلى أعمق أعماقها في غير عسر
أو مشقة . لهذا ألفه الناس وأحبته الأئمة . ويقول عنه أستاذه البارودي من
قصيدة يقرظ بها ديوانه حينما طبع لأول مرة :

ملكته مودته القلوب فأصبحت تلقاه بالتسويق والإعزاز (٤)

ويقول صديقه الأستاذ أحمد محفوظ : « كان ساذجاً سذاجة تكاد تلحقه
بالبلهاء ، فهو يصدق كل ما يقال له ... وكان طيب القلب لا يعرف الحقد ولا
يتعلق بضغينة على أحد مهما لحقه من أذى » (٥) . وكان لسذاجته يرحبه الخوف
من التوافه ، ويعتقد في أمور غريبة ؛ فقد ذكر بعض أصدقائه أنه كان يعتقد
أن نفحة التفاح منومة ، فكان لهذا يكثر من شمه وأكله ، وإلى ذلك يشير بقوله :

(١) ليالى سطح ص ٤ .

(٢) الديوان ١٨٢/٢ .

(٣) مجلة أبولو (يوليو سنة ١٩٢٣) .

(٤) الديوان القديم ١٨٢/١ .

(٥) حياة حافظ إبراهيم ص ١٥٨ .

كم خدرت أعصاب مصر نوافح لعودهم كنوافح التفاح^(١)
ويقول الأستاذ حسن كامل الصيرفي : « إن نفسية حافظ كانت ساذجة
كل الساذجة طيبة كل الطيبة ، يُقبل على من يحبه كل الإقبال ويغضب سريعاً ،
ولكن ما تبدو له في الأفق ظاهرة من مظاهر فرح أو أسى لصاحب أغضبه
حتى ينسى كل شيء »^(٢) .

وكان مظهر حافظ يوحى بغير محبرة ؛ فمن يره لأول وهلة يعتقد أنه رجل
فدّم ثقيل ، وبعد هنيهة من مجالسته يتقلب رأيه فيه إلى التقيض . وفي ذلك
يقول الأستاذ سلامة موسى : « وكان حافظ يمتاز أو يتسم بوجه كالح متجهم ،
يصدم بل يُخيف لأول نظرة ، حتى إذا قضى معه المرء نصف ساعة ودّ لو ينهض
ليقبله ويعانقه »^(٣) .

ومن أخص صفات حافظ الجود الذي يكاد يبلغ حد السفه . كانت حافظه
نقوده في تناول كل يد . . . كان أجود من الريح المرسله كما يقول صديقه
الشيخ البشري . ولو أنه قبض يده بعض الشيء لأصبح من أهل الثراء والغنى .
ويتحدث الناس عن سخائه بما يشبه الأساطير التي نقرأها عن أجواد العرب
القدامى .

ويقول صديقه الأستاذ حسن الحطيم : « وإني لأذكره في جلسته في (بار
اللواء) وقد التف من حوله الصحفيون والأدباء والمتأدبون وداروا حوله في شبه
حلقه ، وحافظ لا ينقطع (الجرسون) عن التردد في مجلسه ذهاباً وجيئة ، فإذا
ما انتهى مجلسه كان حسابه غير يسير »^(٤) . وكان العُفاة وذوو المتربة يقصدونه
فيُفرغ في أيديهم كل ما في جيبه ويبقى خالي الوفاض ، ثم يبيت ليلته على
الطوى . وكل من اتصل به يذكر عن كرمه الفياض الحكايات الغراب ؛ من

(١) الديوان ٩٧/٢ .

(٢) حافظ وشوقي للأستاذ الصيرفي ص ١٥٨ .

(٣) ذكرى الشاعرين ص ٥٦ .

(٤) مجلة أبولو (يولييه سنة ١٩٣٣) ص ١٣١٦ .

ذلك أنه سمع عرساً أن امرأة فقيرة تجاوز داره بالجيزة قد جاءها المخاض فبعث إليها بعشرة جنيهات ، وكان مرتبه حينذاك لا يزيد على الأربعين جنيهاً^(١) . وكان واسع الرزق يأتيه المال من حيث لا يحتسب ، ولكن هذا المال كان لا يستقر في جيبه ، إذ سرعان ما يبسط به يده إلى الأيدي الممتدة إليه ، وكأنه يتمثل بقول الشاعر :

يجود علينا الخيرون بما لهم ونحن بمال الخبيرين نجود
كان متلاًفاً للمال ، لا يعرف له قيمة ولا يحسب للدنيا حساباً ، كان يعطى من يسأله ومن لا يسأله . كان يقبض مرتبه في أول الشهر فيبدده في بضعة أيام على نفسه وعلى إخوانه .

ويذكرون أن وزارة المعارف حينما قررت كتاب (البؤساء) في مدارسها منحت مبلغ ألني جنيه . وقد أنفق هذا المبلغ الضخم في شهر واحد . وكان في استطاعته أن يقتنى الدور والضياع ، ولكنه مات ولم يترك كفافاً من المال ينفع من بعده من ذوى رحمه . كان يرى المال وسيلة من وسائل العيش لا غاية من غايات الحياة . كان المال عنده أهون أعراض الدنيا ؛ ويروى أحد أصدقائه في دهش شديد أن صحفياً راهن حافظاً على أمر من الأمور ، فلما خسر حافظ الرهان أخرج من جيبه فدية رهانه ورقة مالية من فئة الخمسين جنيهاً . وكان موقفاً أثار عجب الحاضرين الذين خيل إليهم أنهم لا يعيشون في هذا العالم المادى الصاخب . ومن طريف ما يذكره عنه الدكتور أحمد أمين « أنه كان يقترح على الحكومة أن تعطى موظفيها أكبر مرتب أول استخدامه ثم تنقصه شيئاً فشيئاً كلما تقدمت به السن ، لا أن تعطيه مرتباً يزيد مع التقدم ، وكان يعال ذلك بأنه يبدأ وظيفته وهو يبدأ شبابه ، وهذا هو زمن الإنفاق ، فإذا هرم ثم شاخ فإنه يكفيه القليل ، وحسبه من غنى شيع ورى^(٢) .

ولعل كرمه هذا راجع إلى أنه تجرع كؤوس البؤس مترعة فأحس وقعه في النفوس فسحخت كفته ونلدبت راحته .

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ١٦٣ . (٢) مقدمة الديوان ص ١٨ .

وكان حافظ في بيته مضيافاً يحنى بضيوفه ويقدم لهم أقصى ما في طوقه من ألوان الطعام الفاخرة . وكان منهُما بالطعام الدسم ، يحب الضيافات الواسعة التي تقدم فيها الذبائح من ضأن وديكة رومية وغيرها ، ويجب أن يرى الأواني قد حُشدت فيها لذائد الطعام من فطائر وحلوى وطيور .

ولم يكن شديد البطش بالطعام الفاخر بقدر ما كان يجب أن يتمتع نفسه بالنظر إليه وبخاصة بعد أن تقدمت به السن . ويحكى صديقه المرحوم خليل مطران « أنه ذهب مع حافظ ذات صيف إلى سوريا ، فدعاهما رئيس الدولة لتناول الغداء بقصر الرئاسة ، وقد دُعي إلى هذه الوليمة الوزراء وعلية القوم . وطاف الخدم على المدعوين يقدمون لهم ألوان الأطعمة المختلفة على طريقة الفنادق الكبرى . ولم يجد حافظ على المائدة ما كان يود أن تكتحل به عيناه من الذبائح والصواني المتدفقة بمفاخر دمشق من الأطعمة التي يجيدون صنعها ، فقال إلى جائب الرئيس وسأله مداعباً : ما لكم تأكلون على طريقة المقتربين الإفرنج ؟ فبالغ الرجل في الاعتذار وقال : إني آسف لأنه سبق إلى علمي أنك تستشفي هنا ، وخشيتُ ألا يكون الطعام صحياً يلائم مزاجك . فقال : شكراً ، ولكن هؤلاء المدعوين ما ذنبهم ؟ ولما أوشكت الوليمة على الانتهاء ، وكان على حافظ أن يلقى كلمة شكر ، استعاض عنها بنكتة لطيفة ، إذ سأل رئيس الدولة : من وزير ماليتكم ؟ فأشار الرئيس إليه ، فقال حافظ : أهنتي الدولة بكما لأن خزانها ستبقى عامرة » (١) .

وكان حافظ يتصف بالصراحة البالغة إلى أقصى حد ، كانت صراحته في بعض الأحيان كالحة . . . إذا استفزه أمرٌ ثارت نفسه واستحال عليه أن يكبح جماحها ، وانطلق فوه يقذف بما في دجيلتها .

كان يقول للأعور في عينه يا أعور ، ما عدا الرؤساء ومن بيدهم الضر والنفع . ويصف صراحته الشيخ عبدالعزيز البشري فيقول : « يحب الجمال ويجمع

(١) مجلة الكتاب (أكتوبر سنة ١٩٤٧) ص ١٤٩٧ .

له ويكره القبح وينعى على أهله ، يجابه بذلك مجابهة لا يتقن في القول ولا يتحرف^(١) . وكان - لفرط سذاجته - سريع الغضب سريع الرضا ، يتحول في لحظات من الحال إلى نقيضها . وكان لهذه الخلة مظهر واضح في علاقته بالرجال وفي رأيه فيهم . وهذه غميزة نغمرها في شخصية حافظ ، وهي دليل واضح على تهاونها وضعفها . ويتبين لنا ذلك من موقفه المتناقض من السلطان عبد الحميد ، وسنتناول هذه المسألة في موضع مناسب . وقد ضاق كثير من الأدباء ذرعاً بموقفه هذا وهاجمه بعضهم في شيء من القسوة والعنف واعتبروه رجلاً عاجزاً واهن الشخصية يتابع الجماهير في ميولها وتقلباتها . وأقرأ ما يقوله عنه المرحوم الأستاذ إبراهيم المازني : « ألا ترى كيف أنه مدح السلطان عبد الحميد قبل المستور ، ثم صرف بعده الثناء إلى رجال تركيا الفتاة وجعله وفقاً عليهم . وهل أدل من ذلك على أنه ليس بصاحب رأى وأنه إنما يتابع الجمهور ويجاريهم في آرائهم وأميلهم ، لا لرياء في طبعه ، ولكن لعجز وضعف في ذهنه »^(٢) .

وكان حافظ شديد الحرص على منصبه ، وكأنما كان شيخ البؤس والفقير يمثل أمام ناظره إذا هو أصيب في منصبه . وقد دفعه حرصه هذا إلى ألا يقول ما يغضب الحاكمين ومن يبدؤهم الأمر ، وغلا في ذلك غلواً بلغ حد التملق البغيض ، فكان يمدح المستعمرين مدحاً تخجل منه الوطنية الصادقة . وكان لا يستطيع أن يخفى إشفاقه من الفصل من الوظيفة . ويخبرنا أستاذنا الدكتور طه أنه لقيه مرة عند المرحوم « محمد محمود » رئيس الأحرار الدستوريين فأنشدته شعراً نظمته في مدح (الباشا) يثنى فيه على جهوده وبلائه في مفاوضة الإنجليز أيام أن كان رئيساً للوزارة ، وكان الدكتور طه يعرف منه هذا الضعف ، فأحب أن يداعبه ، فقال له أمام الممدوح وبعض صحبه : « ما أجمل هذا الشعر وأقواه ! » فقال حافظ : « أسمعون ؟ سجدوا عليه ، فإنه خليق بعد ذلك أن ينقلني » فقال الدكتور طه : « اشهدوا عليّ أنني مستعد للثناء على حافظ في غير تحفظ

(١) ذكرى الشاعرين ص ١٠ .

(٢) شعر حافظ للأستاذ المازني ص ١٤ .

إذا نشر هذا الشعر» ، فقال حافظ مقهقها : « اذئمني ما شئت في غير تحفظ ، فلن أنشر هذا الشعر لأنني لا أريد أن أحال إلى المعاش الآن » ، فقال الدكتور طه : « فإني سأنشر فصلا عنك كله ثناء وسأستشهد ببعض هذا الشعر » ، قال : « ولا هذا أيضا » ، وقضى المجلس وقتاً طويلاً في الضحك من إشفاق حافظ وخوفه (١) .

وقد كان حرصه البالغ على وظيفته يدفعه أحياناً إلى أن يأتي أموراً تترى بمروعة الرجل وتحط من قدره ، يشهد بذلك من اتصلوا به عن كذب ، فقد حدثنا صديقه الأستاذ أحمد محفوظ ، قال : « سمعت "مصطفى الخولي" (٢) وهو صديقه الحميم وجاره أيام كان يسكن في ضاحية الجيزة يقول : إن حافظاً أنكرني وتغافل عني ولم يجيني وهو يدخل مطعم "جوانيدس" في الإسكندرية لأنني فصلت من مجلسي النواب والشيوخ ، فهو يخاف سعداً ورجال الوفد ، وكان مصطفى الخولي رجلاً سمحاً متواضعاً » (٣) .

وكان حافظ يملح سعد زغلول ما كان له سلطان ، فإذا سقط منه صولجان الحكم انصرف عنه حافظ خشية أن يلحقه سوء .

ولما قضى سعد سنة ١٩٢٧ وأقيم له حفل تأبين رثاه حافظ بقصيدة تعتبر من غرر قصائد الرثاء في الشعر العربي (٤) . ومن الغريب أن الدكتور سامي الدهان يعتقد ذلك من حافظ شجاعة وطنية ، لأنه اجترأ على رثاء سعد « ولم يخف موقعه من الحكومة ومحلّه من الوظيفة ومكانه من الراتب » (٥) . وقد نسي الدكتور الدهان أن الحكومة كانت آنذاك حكومة ائتلافية تمخض عنها ائتلاف الأحزاب الذي تمّ في سنة ١٩٢٦ . وكان سعد رئيس مجلس النواب ، وقد اشتركت الحكومة في تأبين الزعيم الراحل . والمخضرمون في السياسة يذكرون أن رئيس الوزارة المرحوم

(١) حافظ وشوق الدكتور طه حين ص ١٩٤ .

(٢) ذكره حافظ في شعر له يدل على ما كان بينهما من مودة . الديوان ٢٠٤/١ .

(٣) حياة حافظ إبراهيم ص ١٦٢ .

(٤) اقرأ القصيدة في الديوان ٢١٨/٢ .

(٥) شاعر الشعب ص ٤٣ .

« عبد الخالق ثروت » وقف يومئذ يؤين سعداً فحقتته العبرات ولم يستطع أن يفوه بكلمة فغادر منبر الخطابة وقد انعقد لسانه عن الكلام . فأين هي الجرأة التي بدت من حافظ حين رثى سعداً حليف الوزارة القائمة ؟ إنه حين رثاه كان يأمن مغبة ذلك ولا يتوجس منه أى أذى يصيبه في وظيفته .

ومن أبرز صفات حافظ التردد وعدم الإدلاء برأى قاطع في أمر من الأمور ، وهذه الصفة وثيقة الصلة بصفة الخوف التي أشرنا إليها ، لأنه كان يشفق على نفسه من أن يغضب أصحاب اليمين إذا أيد أصحاب الشمال مثلاً .

تحدث أحداثٌ تهم الشعب المصرى ، وينقسم الناس في شأنها إلى فريقين ، ويتقدم حافظ شاعر الشعب ليلتى بدلوه في الدلاء ، وينتظر الناس من شاعرهم الرأى الحاسم يهديهم سواء السبيل ، فإذا به يخرج لم يرأى فظير ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ؛ إذ يقف موقفاً وسطاً هو موقف الرجل الخذر الذى يؤثر العافية ، وكأنه اتخذ لنفسه موقف المتفرج الذى يسجل ما يرى وما يسمع ليس إلا .

يُنقل طاغية الاستعمار وجلاد دنشواى (لورد كرومر) فتنفس الأمة الصعداء وتشيعه بعبارات الشماتة والملقت ، وينتظر الناس من حافظ أن يصب على رأس الطاغية اللعنات ، كما فعل زميله أمير الشعراء « شوقى » ، ولكنه - مع بالغ الأسف - صنع ما لم يكن في حسابهم ، إذ أخذ يسرد آراء الناس في الطاغية ؛ طيبها وخبيثها . ولم يكتب بذلك ، فأخذ يعدد أبياده (البيضاء) على المصريين وهم ليسوا (أمة تجحد اليدا) على حد تعبيره ، والله يعلم أن أبادهى هذا الطاغية الجبار كانت أحلك من دياجير الليل البهيم ، وحافظ نفسه أول من يعرف ذلك ، وستحدث عن ذلك في فصل خاص . ثم يختم حافظ القصيدة بهذه الأبيات التي لا تعبر عن رأى صريح ، اللهم إلا تحية كريمة في وداع (الشيخ الخليل) :

فهذا حديث الناس والناس ألسنٌ
ولو كنتُ من أهل السياسة بينهم
ولكننى في معرض القول شاعرٌ
إذا قال هذا ، صاح ذاك مفتداً
لسجلتُ لى رأياً وبلغتُ مقصداً
إضاف إلى التاريخ قولاً مخلداً

فيأبها الشيخ الجليل تحية ويأبها القصر المنيف تجلدا
لن غاب هذا الليث عنك لعلّة لقد لبثت آثاره فيك شهّدا (١)
وتحدث حادثة زواج الشيخ على يوسف صاحب المؤيد بالسيدة « صفية
السادات » فتصّبح حديث الناس في كل مكان ، وتُفيض فيها الصحف ،
ويتناولها الشعراء ، ويُدلى كل واحد برأيه ، وتثرّب الأعناق إلى حافظ آملة أن
يدلى لها برأى صريح في هذه المسألة ، ولكنه يقف موقف الراصد المسجل
فحسب :

وقالوا : « المؤيد » في غمرة	وماه بها الطمع الأشعبي
دعاه الغرام بسنّ الكهول	فجنّ جنونا بينت النبي
فضجّ لها العرش والحاملوه	وضج لها القبر في يرب
ونادى رجال بإسقاطه	وقالوا : تلون في المشرب
وعدّوا عليه من السيئات	ألّوا تدور مع الأحقّب
وقالوا : لصيق بيت الرسول	أغار على النسب الأنجب
وزكى « أبو خطوة » (٢) قولهم	بحكم أحد من المضرب
فا للهاني على داره	تساقط كالمنطر الصيب
وما للوفود على بابه	تزفّ البشائر في موكب
وما للخليفة أسدى إليه	وساما يليق بصدر الأبي (٣)

ويموت قاسم أمين صاحب الدعوة إلى السفور وتحرير المرأة فيرثه حافظ ،
ويعرض لدعوته ، ولكنه لا يقطع بإصابة قاسم أو بخطئه ، ولم يصنع أكثر من
تسجيل آراء المعارضين والمؤيدين :

إن ريت رأياً في الحجاب ولم تُعصم ، فتلك مراتب الرسل
الحكم للأيام مرجعه فيما رأيت فنمّ ولا تسل

(١) الديوان ٢/٢٦٠ -

(٢) أبو خطوة هو الشيخ أحمد أبو خطوة قاضي المحكمة الذي حكم ابتدائياً بفسخ عقد الزواج .

(٣) الديوان ج/٢٥٦ -

وكذا طهارة الرأي تركه للدهر يُنضجه على مهل
 فإذا أصبت فأنت خير في وضع الدواء مواضع العلل
 أولاً ، فحسبك ما شرفت به وتركت في دنياك من عمل^(١)
 ويصدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ فينظم حافظ قصيدة بهذه المناسبة
 مطلعها :

ما لي أرى الأكام لا تفتح والروض لا يذكو ولا ينفخ^(٢)
 وفيها لا يبدي حافظ رأيه واضحاً صريحاً ، وإنما يقف موقفاً لا يحاسب
 عليه ، وهو تسجيل الآراء المختلفة :

قد حارت الأفهام في أمرهم إن تحوا بالقصد أو صرحوا
 فقاتل لا تعجلوا إنكم مكانكم بالأمس لم تبرحوا
 وقاتل أوسع بها خطوة وراءها الغاية والمطمح
 وقاتل أسرف في قوله هذا هو استقلالكم فافرحوا
 فأنت تراه في هذه المسائل وفي أمثالها مضطرباً غير مستقر ، لا يستطيع
 الجزم برأى . وسر ذلك - فيما أرى - أمران :

الأول : ضعف شخصيته وعدم استبطانه للأمر ، فهو يخشى أن ينكشف
 أمره إذا ما بت برأى قاطع في المسائل التي تشغل الناس لأنه قلما يعكف على
 مسألة أو يستوعبها في إمعان وروية ، فقد حكى عنه بعض أصدقائه رواية
 عنه أنه لم يقرأ كتاب « تحرير المرأة » وإن كان قال فيه شعراً^(٣) .

الثاني : خشيته من أن يناله أذى إذا انحاز إلى رأى دون رأى . والواقع أنه
 ما كان يحسه ضرراً إذا أبدى رأيه صريحاً شامخاً في هذه المسائل التي شغلت الرأى
 العام ودحاً من الزمان .

ولكن حافظاً كان يتوجس الأذى من كل شيء . وما أصدق الأستاذ

(١) الديوان ٥٦/٢ .

(٢) الديوان ٩٤/٢ .

(٣) الدكتور أحمد أمين في مقدمة الديوان ص ٣٣ .

أحمد محفوظ حين وصفه أدق وصف قائلًا : « كان رعديداً يربعه الخوف من التوفاه ، كأنه طفل صغير ملأت رأسه صور الغيلان والغفاريت من قصص العجائز في ليالي الشتاء المقرورة » (١) .

وقد جمع أشتات شجاعته مرة بعد أن أحيل على المعاش ، وندد بحكومة إسماعيل صدق في مارس سنة ١٩٣٢ حين اضطرت الأستاذ أحمد لطفي السيد مدير الجامعة إلى الاستقالة احتجاجاً على نقل الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب إذ ذاك إلى وزارة المعارف بدون رضاه وبدون موافقة الجامعة ، وحين اضطرت الأستاذ محمود غالب - وكان رئيساً لإحدى دوائر محكمة الجنايات - إلى التنحي عن نظر قضية القنابل المعروفة قائلًا : إنه لم يخضع إلا لسultan ضميره ، فنظم حافظ أبياتاً يمجّد فيها عمل الرجلين وينتد بطغيان الحكومة منها :

قد راع دار العدل طغى يان وراع الجامعه
فحيمتا حرمهما رغم الخطوب الفاجعه
وقهرتما الباغى على رد الحقوق الناصعه
لله در المستشا ر ودرّ ذاك الباقعه
فهما اللذان تكفلا عنا بصدّ القارعه (٢)

وكان حافظ ذا نفس خائرة لا تستطيع مواجهة الأخطار ، ولم يكن بالرجل الجلد الذى يصمد لنوازل الزمان . كان إذا خاشته الدنيا مخاشنة رفيقة وهنت نفسه وتملكه الجزع . ونحن لا ننسى خور نفسه وضيقة بالحياة في السودان وهو في هذه السن الفنية التي تمتلىء فيها النفس بالآمال العراض . ولم تنقطع رسائله إلى أصدقائه بالقاهرة ، وكلها مليئة بالشكوى من سوء حاله في السودان . وبلغ به الضيق أنه كان يتمنى الموت من هذه الحياة الثقيلة ، وأقرأ قوله إلى صديقه محمد البابلي من قصيدة يعاتبه فيها ويبيته آلامه وأحزانه :

كيف تنسى يا « بابلي » غريباً بات بين الظنون والأوهام

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ١٦١ .

(٢) الديوان ١/١٤٢ .

وحزينا إذا تنفس عادت فحمة الليل جمرة من ضرام
وإذا أن كاد ينصدع الأفق وتعتل دورة الأجرام
بات تحت البلاء حتى تمنى لو يكون المبيت تحت الرغام^(١)

وله في ذلك كلام كثير من المنثور والمنظوم - أشرنا إلى بعضه - يدل على أنه لم يكن « رجل حرب » ، بل كان رجلاً محطماً النفس ، قلبه في جناحي طائر كما يقول العرب . وكان يرى أن أشق أيامه وأثقلها على نفسه هي تلك التي قضها في الجيش ، وفي ذلك يقول : « فلقد لبثت في الجيش مع من فيه بضع سنين فصبرنا على ما لا يصبر على بعضه كل أولئك الذين سُخِّروا لبناء الأهرام »^(٢) .
ومن أظهر طبائع حافظ أن صدره كان ضيقاً حرجاً لا يحتجز فيه سرا من أسراره أو من أسرار أصدقائه ، فإذا لامه صديق على إفشاء سر أجاهه قائلاً : « ومن الذي حملك على قوله لي ؟ » وكأنه يردد قول الشاعر :

إذا ضاق صدرُ المرء عن سر نفسه فصدرُ الذي يُستودع السر أضيق
ويقول كل من خالطه وكان من أصفياه إنه كان هجاءً حديد اللسان ، يتناول خصومه وكل من يغضبه بقوارص الكلم . ويذكرون أنه كان ينظم شعراً فيه هجاء فاحش ، ولكنه كان يستخزي أن ينشره . وقد وعت صدور بعض أصدقائه أبياتاً له في هجاء سعد زغلول منها قوله :

فما دام في قصر الدبارة ربه فسعدٌ ودنلوبٌ لعمرك واحد^(٣)

والحق أن سعداً لم يكن يستحق ذلك ، فقد كان شخصية فذة قوية ، وهو الذي قاوم طغيان « دنلوب » المستشار الإنجليزي وأوقفه عند حده ، بينما سجد له غيره ممن تولوا « نظارة المعارف » . وقال أيضاً يتهمه بالأناثية ويغري به الخديو عباس :

أنا ، أنا ، منه كل يوم لها صدئى بيننا يرس

(١) الديوان ٢٠٢/١ .

(٢) ليالى مطيح ص ٧٩ .

(٣) انظر مجلة أبولو ص ١٣٣٦ . وهذا البيت والبيتان بعده لم تذكر في الديوان .

أدرك أنا وهي في صباحها إن لم تقل : نحن . . . قال : نحن
وقد ذكر بعض شيوخ الأدب ممن كانوا على صلة بحافظ أنه كان صديقاً
لسعد ، ثم تولّى سعد نظارة المعارف ، فأراد حافظ أن يقابله في مكتبه في شأن
خاص ، فوقف في طريقه الساعة والحجاب وسأله أن يذكر حاجته وينتظر
بالباب حتى يأذن له الوزير ، فخرج حافظ مغضباً ، وذهب يشكوه إلى
الشاعر إسماعيل صبري ، وكان في نفسه من سعد أشياء فأغرى حافظاً بهجائه ،
وكان أول ما هجاه به قصيدة كافية فيها كثير من الفحش نذكر أحفها على
الآذان وقعاً . . . قال حافظ بعد أبيات يشير إلى موقف سعد وحميه مصطفى
فهى باشا الذي كان معروفاً بموالاة الإنجليز :

بانيك ذا بانى حميك فلا تخف إن الذى أضحى يقيه يقيكا
إن قيل إنك قد هلممت رجاءنا فيك فعندك أنهم أمروكا
بقصد أن الإنجليز هم الذين يحمونه ويأمرونه .

وكانت بعض الصحف الفكاهية في ذلك الحين تهاجم سعداً وتعيّره بالصلع.
وفي ذلك يقول حافظ ذاكرة « شعوره » في تورية غامزة ومذكراً إياه بعمامته
وبرقة حاله إبان الطلب بالأزهر :

قد جردوك من « الشعور » وبالغوا فاحسرّ وجلّ عن العيون شكوكا
وضّع العمامة يعرفوك بشارة كانت شعارك خاملا مفلوكا^(١)
وتهاجر هو والمرحوم السيد توفيق البكرى - ونحن نعرف مكانة هذا الرجل -
فقال فيه :

وليلة بت بها ساهراً أجزّ ذيل الفحش والفجر
حتى ظننت وليتى عجب أنى بيت السيد البكرى^(٢)

(١) هذه القصيدة غير موجودة في ديوان حافظ وقد نشرت هذه الأبيات في مجلة المصور
عدد ١٧١٢ بتاريخ ٢ أغسطس سنة ١٩٥٧ .
(٢) انظر مجلة أبولو (يولييه ١٩٣٣) .

وله غير ذلك هجاء كله فحش ونكر أنزّه هذا الكتاب عن أن أثبتته فيه ، وهو شعر لم يُنشر وقد تلقفته من أناس اتصلوا به .
 وكان حافظ رجلاً اجتماعياً بطبعه يكره العزلة ، ويجب الاختلاط بالناس على تباين طبقاتهم ، وقد اتصل بأناس كثيرين مختلفي النزعات والمشارب والثقافة . فقد عرف الأستاذ الإمام محمد عبده وأصبح من أصفياؤه والمقربين إليه ، واتصل بأصدقاء الإمام ، وفيهم العالم الأزهرى كالشيخ عبد الكريم سلمان ، وفيهم المجدد صاحب النزعات الثورية كقاسم أمين ، وفيهم القاضي الثبت الذى أدرك حظاً من المجد كسعد زغلول ، وفيهم رؤساء العشائر الكبرى كحسن عبد الرازق ومحمود سليمان وعلى شعراوى ، وغيرهم من ذوى النزعات المختلفة والمنازل الاجتماعية المتباينة .

واتصل حافظ كذلك بالمتطرفين من الساسة أمثال مصطفى كامل وعلى يوسف وعبد العزيز جاويز . وهؤلاء وأولئك جميعاً كانوا يخلصونه بالحب والبر . وحافظ كان مطبوعاً على الرفاء ، فإنه - مع اتصاله بهؤلاء للعظماء - لم يقطع صلته بأترابه من أوساط الناس وغيرهم من الشعراء والأدباء الذين أدبرت عنهم الدنيا ، فكان يعطف عليهم ويتفقدهم في كل مكان . فحافظ - رحمه الله - كان صديق الناس جميعاً ، خالطهم وأدرك عن قرب أهواءهم وميولهم . وكان يتعشق كل ما هو عربى ، ولا يلدانيه - في نظره - شىء في البلدان الأخرى ، سيات في ذلك الفن والتقاليد والعادات . وإذا أراد أن يشيد بنبوغ أحد الغربيين قرنه بأحد عباقرة العرب . فقد نظم قصيدة في « فكتور هيجو » افتتحها بقوله :

أعجمي^١ كاد يعلو نجمه في سماء الشعر نجم العربى
 صافح العلياء فيها والتقى « بالمعرى » فوق هام الشهب^(١)
 وفيها يقول :

سائلوا الطير إذا ما هاجكم شدوها بين الهوى والطرب

هل تغتت أو أرنّت بسوى شعر « هوجو » بعد عهد العرب
ولقد طاف حافظ ببعض مدن أوربا ، فلما عاد أبدى سخطه الشديد
على تلك المدن وتقاليد أهلها « التي تجعل الناس سجناء وتحرمهم الحرية باسم
الحرية في ما يسمونه أوطانها » (١) .

وكان حافظ معروفاً بإعزازه لدينه ، وربما كان هذا هو السبب الأكبر
في حبه للعرب ولكل ما هو عربي ، وكان لوطنه من حبه نصيب لا يقل عن حبه
لدينه ، وفي ذلك يقول المرحوم داود بركات : « أما وطنيته الصادقة فلا يعادها
إلا دينه الحمدي . فلك من حافظ ماشئت إلا أن تنال من هاتين الخلتين :
دينه ووطنيته ، ولك أن تحيله عما شئت لما طبع عليه من سماحة الخلق وحسن
الطوية إلا عن هاتين العقيدتين اللتين تقيّد بهما » (٢) . ويقول عنه صديقه
الأستاذ أحمد محفوظ : « كان ثابت العقيدة مؤمناً إيماناً ثابت الدعامة ، كان
يقوم على الاعتماد على الله في حياته كراكب البحر أو كراكب الصحراء الذي
يتوجه إلى الله دائماً ليجنبه الغرق أو الضلال في النيه » (٣) .

وكان في حافظ خلة طيبة ، تلك أنه كان — على حبه لدينه — لا يندفع
وراء التعصب المقيت ، ولا يعرف عنه أحد أنه حمل على المسيحية أو اليهودية
في مجالسه الخاصة أو العامة . والمتصفح لديوانه يجد فيه ملحاً لبعض اليهود مثل
المولدة (لونا) (٤) والمغنى (چاك رومانو) (٥) من أهالي الإسكندرية .

وكان قلبه ينفطر أسى حين يرى أفاعيل المستعمرين تُفلق في التفرقة بين
عنصري الأمة : المسلمين والأقباط ، وقد نظم قصيدة يهيب فيها بالخدبو
« عباس » أن يرأب الصدع الذي أحدثه أعداء الوطن المستعمرين بين العنصرين ،

(١) مجلة أبولو ص ١٣٣٥ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) حياة حافظ لإبراهيم ص ١٧٧ .

(٤) الديوان ٧١/١ .

(٥) الديوان ٢٢١/١ .

يقول فيها (١) :

مولاي أمتك الوديعة أصبحت وعراً المودة بينها تتفصم
نادى بها القبطى ملء لحاته أن لا سلام وضاق فيها المسلم
وهم أغار على النهى وأصلتها فجرى الغي وأقصر المتعلم
فهموا من الأديان ما لا يرتضى دين ولا يرضى به من يفهم
ماذا دها قبطى مصر فصدّه عن ودّ مسلمها وماذا ينقم ؟
وعلام يخشى المسلمين وكيدهم والمسلمون عن المكاييد نُوم

ويخاطب الأقباط مبيناً لهم أننا أبناء وطن واحد قد وحدت بينهم الآلام :
قد ضمنا ألم الحياة وكلنا يشكو ، فنحن على السواء وأنتم
ثم يُهرع إلى الجالس على العرش راجياً أن يتدارك الأمر بحكمته :
ربّ الأريكة إننا في حاجة لجميل رأيك والحوادث حوم
فأفرض علينا من سمائك حكمة تأسو القلوب فإن رأيك أحكم
واجمع شتات العنصرين بعزمة تأتي على هذا الخلاف وتجسم

وكان يُشفق على دول الشرق عامة وعلى العرب خاصة من أن تمزقهم الخلافات
الدينية ، وينذرهم بأنهم إذا لم يقطعوا دابر هذه الخلافات حق عليهم قول
المعري :

والأرض للطوفان مشتاقة لعلها من دَرِنٍ تُغسل
وقد أنشد حافظ قصيدة في الحفل الذي أقيم لسماعها بالجامعة الأمريكية
ببيروت قال فيها :

إن دام ما نحن فيه من مذبذبة وفتنة بين أجناس وأديان
رأيتُ رأى « المعري » حين أرهقه ما حلّ بالناس من بغى وعدوان
لا تطهرُ الأرض من رجس ومن دنس

حتى يعاودها « نوح » بطوفان (٢)

(١) الديوان ١/٢٨٨ .

(٢) الديوان ١/١٣٣ .

وكان يحتفل بالنابعين والعباقرة من المسيحيين في العالم الغربي والعالم الشرقى ،
فمدح « فكتور هيجو » ، ولجى دعوة المجمع العلمى بإنجلترا حينما احتفل بمرور
ثلثمائة عام على وفاة شاعرهم الأكبر « شكسبير » فنظم قصيدة أشاد فيها بعبقريته
هذا الشاعر الخالد (١) . ورثى ملكة الإنجليز « فكتوريا » (٢) ، وتولستوى (٣)
الفيلسوف الروسى المعروف وعدّد مآثره على الإنسانية . وأشاد بعظمة خليل
مطران وفضله على دولة الشعر (٤) ، وامتدح الأستاذ واصف غالى وقدم إليه باقة
من الشعر الجميل (٥) عندما نشر كتابه المسمى « حديقة الأزهار » « Le Jardin

des fleurs » الذى ترجم فيه بعض مقطوعات من الشعر العربى إلى اللغة الفرنسية
وهنا الدكتورين فارس نمر ويعقوب صروف صاحبي مجلة « المقتطف » بمناسبة
عيدها الخمسين ونوّه بفضلهما العظيم على الصحافة والعلم ، يقول فيهما :

خمسون عاماً في الجهاد كلاهما شاكى البراعة طاهر الجلباب
قلمان مشروعان ، في شقيّهما وحى يفيض على أولى الألباب
خطأً بمقتطف العلوم بدائماً وروائعاً بقيت على الأحقاب
جاءنا لنا من كل علم نافع أو كل فن ممتع بلباب (٦)

وحافظ لا يتفك يشير إلى ما لأهل سوريا ولبنان من أثر لا يُجحد في ميدان
الصحافة والأدب ، وكلهم - فيما أعلم - مسيحيون :

كم في نواحي ربوع النيل من طرف « لليازجى » و« صروف » و« زيدان »
وكم لأحيائهم في الصحف من أثر له « المقطم » و« الأهرام » ركنان (٧)

(١) الديوان ٧٢/١ .

(٢) الديوان ١٣٦/٢ .

(٣) الديوان ١٦٤/٢ .

(٤) الديوان ٥٨/١ .

(٥) الديوان ٦٣/١ .

(٦) الديوان ١٥٤/١ .

(٧) الديوان ١٣٣/١ .

ورثى علماءهم وأفذاذهم مثل الدكتور شبلي شميل^(١) وجورجى زيدان واليازجى^(٢) ويعقوب صروف^(٣) وحبيب المطران^(٤).

وكثيراً ما أشاد بنشاط أهل المهجر ؛ هؤلاء الذين يمشون فى مناكب الأرض وبأكلون من رزقها الحلال ، حتى أثرى الكثير منهم ، وظفر بعضهم بمراكز مرموقة . والمعروف أن كثرتهم الكائرة من المسيحيين :

تيمموا أرض « كولب » فما شعرت منهم بوطء غريب الدار حيران
سادوا وشادوا وأبلوا فى مناكبها بلاء مضطلع بالأمر معوان^(٥)
ويقول من قصيدة أخرى :

بأرض « كولب » أبطال غطارفة أسد جياع إذا ما ووتبوا وتبوا
لم يحممهم علمٌ فيها ولا عددٌ سوى مضاء نحامى وردة الثوب^(٦)

وكان يعتز بصداقته للشاميين المسيحيين المقيمين بمصر ويرى أنهم ليسوا غرباء عن أرض الكنانة ، فالكنانة والشام شقيقتان تظللها راية العروبة ، أو على حد قوله « أختان أهمها اللغة العربية تشرف عليهما الدولة العلية ، مصر دار الأمان وسوريا روضة الجنان »^(٧) :

فما الكنانة إلا الشام عاج على ربوعها من بينها سادة نجيب^(٨)
وكان معجباً بهمهم التى تفتحم الأهوال وتتخطى الصعاب :
يضيق على السورى رجب بلاده فيركب للأهوال هما هو راكبه^(٩)

(١) الديوان ١٨١/٢ .

(٢) الديوان ١٨٣/٢ .

(٣) الديوان ٢٢٨/٢ .

(٤) الديوان ٢٤٥/٢ .

(٥) الديوان ١٣٣/١ .

(٦) الديوان ٢٦٨/١ .

(٧) ليالى سطيح ص ١٤ .

(٨) الديوان ٢٦٨/١ .

(٩) الديوان القديم ٨١/١ وهذه القصيدة ليست موجودة فى ديوان وزارة المعارف .

وكان يعترف بنبوغهم ونشاطهم فيقول : « كلما نظرت في جالية السوريين المسيحيين رأيت بينهم رجالاً إذا هزوا أقلامهم أمطرت ذهباً ، وإذا خطوا بها سطرت عجباً . ولو شئت أن أعد منهم عددت كثيراً . هؤلاء أصحاب المتتطف ودائرة المعارف والضياء والهلل والحامعة . وهؤلاء أصحاب الصحف اليومية وغيرها » (١) .

غير أنه كان يحز في نفسه أن يرى السوريين المسلمين قد تخلفوا عن مواطنهم المسيحيين . فكلما نظر إليهم لا يرى بينهم « غير البائع والسمسار ورائض الخيل والحزار » (٢) .

ولا أدل على طبيعته السمحة البريئة من التعصب من أنه كان يود من قرارة نفسه أن يرى الشرق قد قضى على عقارب الخلاف التي كانت تتحلب سماً زعافاً بسبب اختلاف العقائد وتباين المذاهب والأجناس :

متى أرى الشرق أدناه وأبعده عن مطمع الغرب فيه غير رستان
تجرى المودة في أعراقه طلقاً كجبرية الماء في أثناء أفنان
لا فرق ما بين بوذى يعيش به ومسلم ويهودى ونصرانى (٣)

ويتحسر على مجد الشرق وعظمته في العصور المواضي :

عهد « الرشيد » « ببغداد » عفا ومضى
وفى « دمشق » انطوى عهد « ابن مروان »
ولا تسلك بعده عن عهد « قرطبة »
كيف انمحي بين أسياف ونيران

وكان قلب حافظ الرقيق ينبض لكل كارثة تدهم العالم : كان يشارك الناس طراً في بلاياهم : لا فرق عنده بين مسلمين وغير مسلمين ؛ فقد قال

(١) ليالٍ سطح ص ١٨ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الديوان ١/١٣٣ .

شعراً في حريق ميت غمر سنة ١٩٠٢^(١) ، وفي بركان جزر المارتنيك سنة ١٩٠٢^(٢) ، وفي زلزال مسينا سنة ١٩٠٨^(٣) . ولما اندلع أوار الحرب اليابانية الروسية جزع الشاعر وأشفق على الدولتين أن تتفانيا ، وسجل ذلك في شعر رقيق^(٤) .

وفي سنة ١٩٠٥ جاءت الإمبراطورة « أوجيني » إلى مصر متنكرة وقد دالت دولتها وأدبرت عنها الدنيا وحطمتها السنون : وزلت في أحد فنادق بور سعيد ، فأنشأ حافظ قصيدة يقارن فيها بين مجيئها إلى مصر سنة ١٨٦٩ في حفل افتتاح قناة السويس وهي في عنفوان مجدها ، وبين مجيئها هذه المرة . وفي هذه القصيدة يواسي حافظ الإمبراطورة السابقة ويحاول أن يسرّي عنها ويبين لها أن الدهر قَلَبَ والأيام دَوَّلَ فلا تبتئس بما أصابها^(٥) .

وذلك كله يدل على أن حافظاً كان رجلاً سمح النفس ، بريئاً من التعصب الديني والوطني .

(١) الديوان ٢٥٠/١ .

(٢) الديوان ٢٥٢/١ .

(٣) الديوان ٢١٥/١ .

(٤) الديوان ١٠/٢ .

(٥) الديوان ١٤/٢ .